نساء مؤمنات

في التاريخ الاسلامي

إعداد

عمرو إسماعيل محمد

الكتاب: نساء مؤمنات .. في التاريخ الإسلامي

الكاتب: عمرو إسماعيل محمد

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

محمد ، عمرو اسماعيل

نساء مؤمنات في التاريخ الإسلامي / عمرو إسماعيل محمد

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٩٥ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٦ – ٩٤٨ – ٤٤٦ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٧١٣٩ / ٢٠١٩

نساء مؤمنات
في التاريخ الإسلامي

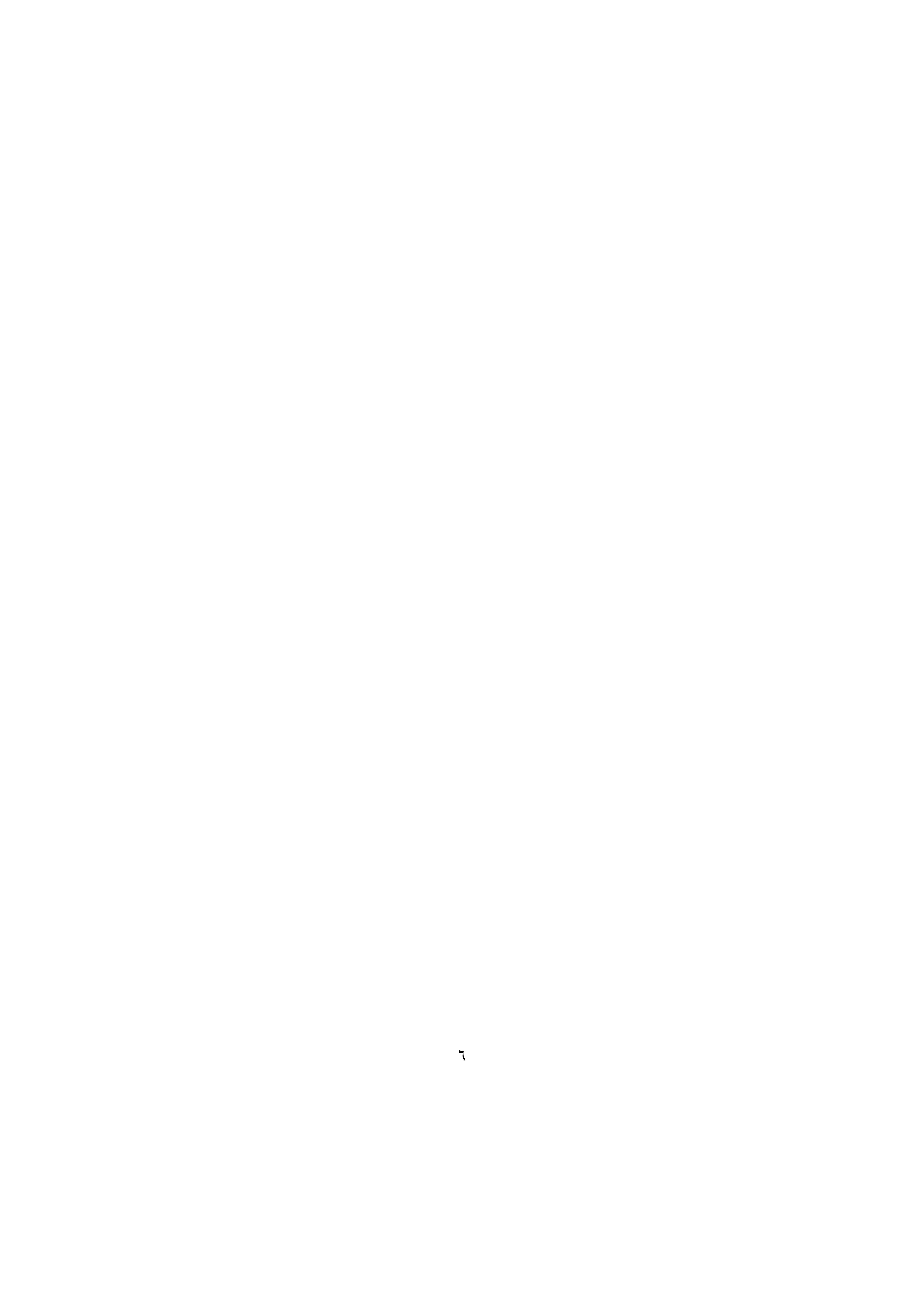




إهــداء

إلى روحِ أمي الطاهرة وأبي الغالي
أهدي هذا الكتاب عرفانا بالجميل والفضل

المؤلف



مقدمة

قال الله تعالى: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (سورة يوسف ١١١)

لاشك أن مكانة المرأة في الإسلام تعد من أكثر المواضيع خلافاً وجدلا ، وتشغل أحاديث الكثير من الناس فى المحافل الدولية ، بل إنها مادة اهتمام ودراسة عند المسلمين الأصوليين أيضاً، بما يمثل حقوقهن في إطار حقوق المرأة في العالم الإسلامي. قد يجد القارئ العادي نفسه في ارتباك نظراً لكثرة المؤلفات التي عالجت وما تزال تُعالج هذا الموضوع بسطحية وانحيازية. فهناك من يتحدث عما وصلت إليه المرأة فى أوربا من قمة فى الابداع والوصول لأعلى سلم الدرجات الوظيفية بل وتقلدت المناصب العليا فى بعض البلدان وغيرها فى حين أن مثيلاتها مازالت لاتعرف حتى تكتب أسمها فى دول المشرق العربى ونسوا أنها أخذت حظا وافرا من العلم قديما وتحت راية الاسلام، ولها أعمال وبطولات لو قيست بغيرها من اللواتى يتحدث عنهن لكانت فى أعلى القمم وغيرها يقبع فى أسفلها.

لقد جعل الله تعالى تقوى القلوب ميزان التفضيل بين الخلائق، وسبباً لعلوّ مكانتهم عنده، حيث قال: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)، فإذا

ورد حديث، أو قول في فضل أحد الناس، وفي جزائه العظيم عند الله سُبحانه؛ فإنّه ولا شكّ قد أدّى ما عليه ابتغاء مرضاة ربّه سُبحانه، ففاز بهذا المكان الرفيع، والأجر الجزيل، كما ورد عن رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– قولاً في أفضل نساء أهل الجنة، وهو: (أفضلُ نساءِ أهلِ الجنةِ خديجةُ بنتُ خويلدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمدٍ، ومريمُ بنتُ عمرانَ، وآسيةُ بنتُ مزاحمٍ امرأةُ فرعونَ)، حيث كان لكلّ واحدةٍ منهنّ تضحية، وعمل عظيم أدّته في سبيل دينها، ودعوتها حتى حازت هذه المنزلة الرفيعة عند الله تعالى، إذْ إنّهنّ لم يُبشرن بالجنة وحسب، بل رُفعن إلى حدّ الأفضلية المطلقة في الجنة.

والمتأمل أيضا للمرأة فى حياة الاوائل من البشر وفى حياة النبى صلى الله عليه وسلم، يجدها حافلة بالمشاهد العظيمة فى جميع المراحل بنتا وزوجة وأما. لقد ضربت النساء –كما ضرب الرجال– المثل والقدوة العالية في تقواهن لله تعالى.

لقد أقبلت المرأة على العلم والطاعة منذ نشأتها، فنهلت من معينه، وأخذت منه بسهم وافر، فأحسن بذلك منزلتها بين قومها والناس، فأصبحت نموذجا يقتدى به بين نساء العالمين .

فلا يَخفى على كل باحث أن الاطلاع على سِيَرَ الأعلام مما يَشحَذُ الهِممَ لسلوك سبيلهم، والاقتداء بهم؛ قال الشاعر:

تشبَّهوا إن لم تَكونوا مثلَهم   إن التشبُّهَ بالكِرامِ فلاحُ.

وفي تاريخ الأمم تراجمُ لنساء تستحق أن تكون مثالًا يُحتذى بها، وقدوةً يُتَأَسَّى بها، كن قدوة وضربن الأمثلة بين أقوامهن دفاعا عن عقيدتهن وعفتهن فكن صواحبات خلق ودين وستظل ذكراهم باقية ما بقى الدهر.

تحدَّث القرآن الكريم حديثًا خاصًّا عن بعضهن وأثنى عليهن إما تصريحا أو تعريضا، فكان ذكرهن تكريما لهن.

وبما أننا نعني الحديث هنا عن طائفة من فضليات النساء و الكاملات فى سيرهن وبما حفل تاريخهن من انجازات كانت سببا فى تخليد ذكرهن فإننا اخترنا بعضا من هذه النماذج .

وكما سيتضح في الأبواب القادمة، فإنه ليس بوسعنا دائماً إلا الوقوف على ما قدمن من عمل كان سببا لتخليدهن وكان مثلا لكى يحتذى به.

وهذه بعض النماذج التي تدلل على ذلك، عسى أن تكون حافزًا لنساء المسلمين للوصول إلى هذه الدرجة السامية، بالتأسي بهذه النماذج الرائدة.

المؤلف



أم البشر حواء

لا تتعجب من قدرة الله تعالى إذ خلق آدم من غير أب وأم، وخلق حواء من غير أم، وخلق عيسى من غير أب: "هَذَا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه"(سورة لقمان الأية ١١). وقال تعالى: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزوجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن ذلك لآيات لقوم يتفكرون"(سورة الروم الأية ٢١).

وذكر ابن كثير عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من الصحابة: أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشي فيها وَحِشًا ليس له زوج يسكن إليه، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة، خلقها الله من ضلعه فسألها: من أنت؟ قالت: امرأة، قال: ولِمَ خُلِقت؟ قالت: لتسكن إليَّ، قالت الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء، قالوا: ولم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: "استوصوا بالنساء خيرًا فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج الضلع أعلاه إن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل على عوج استوصوا بالنساء خيرًا". قال تعالى: "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها

وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساء". يعني حواء، خلقت من آدم من ضلعٍ من أضلاعه.

أصبح لآدم زوجة يسكن إليها بعد أن كان وحيدًا ليس له زوج يأنس بها. قال تعالى: "يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدًا حيث شئتما". فلما أسكن الله عز وجل آدم وحواء أطلق لهما أن يأكلا كل ما شاء أكله من الطيبات والثمرات في الجنة، عدا ثمرة الابتلاء، فعاشا النعيم متساويان فيه، وقد أعطاهما الله عز وجل من كرامته وشريف المنزلة عنده، ومكنهما في جنته من رغد العيش وهنيئه والرغد الهنئ الواسع الطيب، وهذا نوع من أنواع التكريم والرأفة والرحمة، وأحل الله لهما....، ولم يحرم عليهما إلا شجرة واحدة وهذا بيان لسعة رحمة الله وتكريمه لهما، حتى كان الامتحان "ولا تقربا هذه الشجرة". لقد نهى الله عز وجل آدم وزوجه أكل ثمار شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فاكلا منها، ولا علم لنا أي شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلًا على ذلك في القرآن ولا من السنة النبوية. وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها، فذلك علم إذا علمه عالم لم ينتفع به، وإن جهله جاهل لم يضر جهله به.. والله أعلم.

استطاع الشيطان أن يوسوس لهما وحلف لهما إني لكما لمن الناصحين، وإنما أراد بذلك تزيين الخطيئة لهما، فقال: "ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما إني

لكما لمن الناصحين". فوقع ذلك في أنفسهما، حتى أكلا من الشجرة المحرمة، وكان انفعال حواء لوسوسته أعظم، فكانت حواء أول من أكل قبل آدم، وهي التي حضته على أكلها. وقيل إن الذي دل حواء على الأكل من الشجرة هي الحية، وكانت من أحسن وأعظمها، فأكلت حواء عن قولها، وأطعمت آدم عليه السلام."فوسوس إليه الشيطان قال يآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى. فأكلا منها فبدت لهما سوءاهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة"، فلما أصابوا خطيئة في الجنة بالعدول عن أمر الله تعالى بدت لهما سوءاهما، فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة حتى يواريا سوءاهما، وهم يبكيان على الذنب وعلى ما فاهما من النعيم وكان العتاب من الله والتأنيب لهما: "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم". وقال السدي عن ابن عباس: "فتلقى آدم من ربه كلمات" قال: قال آدم عليه السلام: يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قال له: بلى، قال: ونفخت في من روحك؟ قيل له: بلى، قال: أرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم. فكانت هذه الكلمات بمثابة العلاج "قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين".

العبد يُبتلى في دينه ودنياه، ومن خلق المؤمن التألم والندم إذا فرط منه الذنب، فيسعى لتطهير نفسه من الإثم، قال تعالى: "وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون. ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد".

قال ﷺ: "كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون".

والمسارعة والمبادرة للتوبة إلى الله تعالى دأب القلب السليم المعافي؛ ليتخلص من هذه الذنوب وإن صغرت، فهذا القلب يُنكرها. وعن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ، قال: "إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها".

تتجلى رحمة الله بعباده بقبول توبتهم وحبه إياهم. قال تعالى: "إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين".

سلكت حواء سبل النجاة والتوبة، فكان منها هذا الاعتراف والرجوع إلى الله والإنابة والتذلل والخضوع والاستكانة والافتقار إليه تعالى في الساعة الراهنة، ندمت حواء على ذنبها، وحزنت من جراء معصيتها وعزمت ألا تعود لفعلتها، وتجافت عن شهواتها وتركت الغفلة وتذكرت وصية ربها، فكانت المسارعة حتى لا يفوتها عفوه وبادرت بالتوبة مع زوجها، فكانت التوبة النصوح، والعزم على عدم العودة إلى الذنب، لقد امتن عليها وعلى زوجها وتاب عليهما، وكانا أول التائبين استجابة لأمر ربهما، إنه هو "التواب الرحيم".

وبالتأمل في هذه الآية الكريمة وما بها من الخير العظيم للبشرية بسهولة الرجوع إلى الله والإنابة إليه، وأن باب التوبة مفتوح من خلف أبيهم آدم؛ فالاعتراف بالذنب أول منازل التوبة ثم الندم ثم الاستغفار باللسان

وينوي ألا يعود إلى الذنب، فيحصل به العفو والمغفرة فأي شيء أعظم من المغفرة وزوال الخطيئة؟، عن عبد الله بن مسعود قال: التوبة النصوح أن يتوب ثم لا يعود، قال تعالى: "وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون. وهنا النداء بالمسارعة إلى التوبة يعقبها فلاح ولِمَ لا؟ وقد قال تعالى: "وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات" "استبشر بعفو الله واعلم أنه رحيم بعباده، وفي هذا دليل على أن العبد إذا تاب قَبِل الله توبته، فلا ينبغي للعبد أن يقنط أو ييأس من رحمة الله تعالى، المغفرة أثمن عند المؤمنين، فهي تطهرهم وتغسلهم كما يغسل الثوب الأبيض من الدنس، فما أعظم الخالق إذ يسر لهم التوبة وقبلها منهم.

وبالإنزال في الأرض تمت كلمة الله الأخيرة، وعهده الدائم مع آدم وذريته، عهد الاستخلاف في الأرض وشرط الفلاح فيها أو البوار، لتكون العودة إلى مطالع القصة قصة البشرية "وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين"، فكان أمر الله لهم جميعًا بالهبوط إلى الأرض، فهي أرض مستقر ومتاع إلى حين وهي مهبط الكتب والرسالات ومبعث الأنبياء والرسل.

وذكر ابن جرير عن قتادة، قال: قال تعالى: يا آدم، إني أهبطت لك بيتًا تطوف به كما يُطاف حول عرشي، وتصلي عنده كما يُصلى عند عرشي، فانطلق إليه آدم عليه السلام"، وأرسل الله له ملكًا فعرفه مكانه وعلَّمه المناسك، فطاف به ومن بعده الأنبياء، فهنالك يستجيب الله عز

وجل ولولده من كان منهم في طاعته. وذكر أن بين كل خطوة خطاها آدم مفازة، فصارت المفاوز بعد ذلك قرى وعمرانًا.

تعلم آدم عليه السلام صنعة كل شيء في أرض الابتلاء، الزراعة والحرث والغزل والرعي، وكانت حواء تشاركه كل ذلك، وذكر أنها كانت تلد في كل بطن ذكر وأنثى، وأمر الله تعالى أن يزوج كل ابن أخت أخيه التي ولدت معه، والآخر بالأخرى ولم يكن تحل أختًا لأخيها الذي ولدت معه.

كانت حواء تعيش مع آدم الفرحة تشاركه كل شيء حتى ينعقد الامتحان مرة أخرى "واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانًا فتُقُبل من أحدهما ولم يُتَقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين، لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين، إني أُريد أن تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين، فبعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأُواري سوءة أخي فأصبح من النادمين".

وملخص ما ذكره أئمة السلف رحمهم الله في ذلك: أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى أخرى، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل وكان أكبر من هابيل وأخت هابيل أحسن، فأراد هابيل أن يستأثر بها على

أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قربانًا وذهب آدم ليحج إلى مكة واستحفظ السماوات على بنيه، فأبين والأراضين والجبال فأبين، وقرب قابيل حزمة من أردأ زرعه، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل_ وهابيل قدم أفضل شاة عنده يحبها_ وتركت قربان قابيل، فغضب قابيل وقال لأخيه: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين، فقتل أخيه.

حزن آدم وحزنت حواء على ابنهما هابيل حزنًا شديدًا، وعلما أن الحياة في أرض الابتلاء اختبار لا ينقطع، ومحنة حلقاتها تتواصل دون انقطاع، وأدركا أن لا سبيل لمواجهة ذلك إلا بالصبر على البلاء، وحسن الطاعة لله والاستغفار من الذنب أطراف الليل والنهار، مع الاجتهاد في العمل على إعمار الأرض التي أراد الله تعالى استخلافها فيها، بما يرضيه ويمكن لعبادته وذكره.

تفيض المصادر وتختلف حول تعداد ذرية حواء والعمر الذي قضته والمكان الذي عاشت ودفنت فيه، وأيًا ما كان الأمر، فقد عاشت حواء أعوام عمرها إلى جانب آدم عليه السلام صابرة محتسبة عابدة مستغفرة، تتفتح جوارحها على ذكر الله، وقد وقر عزمها على العمل لتكون جديرة بالاستخلاف، زوجة صالحة، وأمًّا لأجيال تسير على طريق الخير والهداية.

الصديقة " سارة زوجة نبي الله إبراهيم عليه السلام"

الصدِّيقة سارة بنت هاران بن تارخ هي أول امرأة آمنت بإبراهيم عليه السلام بعد أمه بونا بنت كربنا، وكانت سارة امرأة عاقلة جميلة ذات خلق ودين وتصغر إبراهيم عليه السلام بعشر سنين. وكانت تقيم مع أبيها هاران الأكبر بـ"فدام آرام" في أرض بابل بالعراق قبل أن يقصدوا أرض الكنعانيين حيث نزلوا حران . وهي بلاد بيت المقدس . وكان أهل حران يعبدون في ذلك الوقت الكواكب والأصنام، وملكهم في ذلك الوقت يُدعى النمرود بن كنعان، فكل من في أراضي ملكه كانوا كفارًا، سوى إبراهيم وسارة ولوط عليهم السلام، وكانت نشأة إبراهيم تختلف عن نشأة قومه؛ فقد عرف ربه وبرئ من دين قومه، وأنكر عليهم عبادة الأوثان وحقَّرها وعاندهم في ذلك.

استطاع إبراهيم عليه السلام أن يحطم أوثان هؤلاء وطواغيتهم، حيث أبطل الله به مزاعمهم وضلالهم، فكسرها بفأس في يده، حتى إذا بقي أعظمهم ربط الفأس في يده، فلما رأوا ما فعل بأصنامهم راعهم ذلك وأعظموه، وعلموا أن إبراهيم هو من فعل هذا.. فلقد أتاه الله سبحانه وتعالى رشده في صغره وابتعثه رسولًا واتخذه خليلًا في كبره..

ناظر عليه السلام قومه وكبرائهم ودحض حججهم، فهوت أصنامهم ومعبوداتهم في الأرض ما لها من ناصر، فكادوا لإبراهيم وخدوا له الأخاديد وأشعلوا النيران لعلها ترهب إبراهيم ومَنْ آمن معه.. ولكن الله ناصره..

قال تعالى: "فَمَا كَاْنَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَاْلُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ"، فسقطت أعلام الكفر وتهاوت بكل رموزها.

ذكر الله تعالى هذه المناظرة والمجادلة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وكانت الإشارات واضحة، ولكن: هي هي مقولتهم وكبرهم وعنادهم الذي حجبهم عن الحقيقة وعن المعبود الواحد الأحد، فلا يخفي على أحد أن لكل موجود واجد، وأن لكل صنعة صانع، فجاء بحماقته الملك النمرود، وغض بصره وأغلق جوارحه أمام برهان الحق.

قال مجاهد وغيره: وكان أحد ملوك الدنيا، فقد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان، والكافران: النمرود وبختنصر.. وهذا النمرود ادعى لنفسه الربوبية، فلما قال الخليل: ربي الذي يحيى ويميت، قال: أنا أحيي وأميت.. فقال إبراهيم: "فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالْشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بَهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِيْنَ".

وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار. وقد روى عبد الرزاق عن معمر، عن زيد بن أسلم: أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم عليه السلام في جملة من وفد الميرة، فكانت بينهم هذه المناظرة، ولم يعطي إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس، بل خرج وليس معه شيء من الطعام،

فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه، وقال: أشغل أهلي إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ ونام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعامًا طيبًا، فلما استيقظ إبراهيم عليه السلام وجد الذي قد أصلحوه، فقال أنى لكم هذا؟ قالت: من الذي جئت به، فعرف أنه رزق من الله عز وجل.

نعم الزوجة الصالحة المؤمنة التقية، يأتيهما الطعام والرزق ببركة الله تعالى، قال سبحانه: "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ". إن من أولى مهام الزوجة الصالحة معاونة زوجها على نوائب الحياة، والوقوف بجانبه أيًّا كانت الشدائد، ولعل إيمان الزوجة بقدرة الخالق على الوقوف إلى جوار عباده، وقدرة الرزاق على توفير رزقهم هو ما يثبت عزم الزوجة الصالحة على المضي قدمًا في طريق إعانة زوجها وتثبيته على طريق الحق.

لم ييأس إبراهيم عليه السلام من دعوة أبيه آزر، فقال له: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا، فأبى أبوه الإجابة إلى ما دعاه إليه إبراهيم عليه السلام وأصر على الكفر "إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ولَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا. يَا أَبَتِ لا تَعْبُد الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْرَّحْمَنِ عِصِيًّا.يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَاب مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ للشَّيْطَانِ وَلِيًّا. قَالَ أَرَاْغِبٌ أَنْتَ عَنْ آَلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيْمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا. قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي

حَفِيًّا. وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا". فما كان من إبراهيم عليه السلام ومن كان معه من أصحابه الذين اتبعوا أمره إلا أن أجمعوا على فراق قومهم، فقالوا: "إنا برءؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير". خرج إبراهيم عليه السلام مهاجرًا إلى ربه وخرج معه ابن أخيه لوط وسارة ابنة عمه التي كان قد تزوج بها، خرج إبراهيم عليه السلام وزوجته يلتمسا الفرار بدينهما وتنقلا من مكان إلى آخر، حتى إذا ما صادفا الجدب وقلة الماء، استقر بهما العزم على التوجه إلى أرض مصر.

وجد إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة في مصر أرضًا خصبة ترعى فيها الأنعام، وهناك علم إبراهيم عليه السلام بشأن حاكم مصر، الذي كان جبارًا من الجبابرة، وكانت سارة من أحسن النساء وجهًا فلما وصفت لفرعون، أراد أن يأخذها لنفسه، قال إبراهيم لها: قولي أنا أخته.

قال الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، قوله حين دعي إلى آلهتهم فقال: "إني سقيم" وقوله: "بل فعله كبيرهم هذا"، وقوله لسارة: إنها أختي، قال: ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك، أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار، قال: من هذه معك؟ قال: أختي، قال: فأرسل بها، قال: فأرسل بها إليه،

وقال: لا تكذبي قولي، فأني قد اخبرته أنك أختي، إنه ليس على الأرض مؤمنًا غيري وغيرك، فلما دخلت عليه قام إليها، فأقبلت تتوضأ وتصلي، وتقول: اللهم إن كنت تعلم إني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليَّ الكافر. قال: فغطا حتى ركض برجله. قال أبو الزناد: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة: إنها قالت اللهم إن يمت يقال: هي قتلته، قال: فأرسل، قال: ثم قام إليها، قال: فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليَّ الكافر. قال: فغطا حتى ركض برجله. قال أبو الزناد: عن أبي سلمة عن أبي هريرة، أنها قالت: اللهم إن يمت يقال هي قتلته، قال: فأرسل، قال: فقال في الثالثة والرابعة: ما أرسلتم إلا شيطانًا، أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر، قال: فرجعت، فقالت لإبراهيم: أشعرت إن الله رد كيد الكافر وأخدم وليده".

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: ورأيت في بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهدا لها وهي عند الملك وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته، فإنه كان يحبها حبًّا شديدًا لدينها وقرابتها وحسنها الباهر، فإنه قد قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها، أحسن منها، ﷺ".

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله: ويقال: أن الله كشف لإبراهيم حتى رأى حال الملك مع سارة معاينة، وأنه لم يصل منها إلى شيء،

وذكر أيضا أن الملك أمر بإدخال إبراهيم وسارة عليه، ثم نحى إبراهيم إلى خارج القصر وقام إلى سارة، فجعل الله القصر لإبراهيم كالقارورة الصافية، فصار يراهما ويسمع كلامهما.

كانت سارة مثالًا للزوجة الصالحة العفيفة الطاهرة، إذ استعانت على هذا اليشطان بالصبر والصلاة مما يدل على رجاحة العقل وحسن الخلق والدين. قال تعالى: "وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاْةِ"، فعصمها الله عز وجل وصانها ورد كيد عدو الله دون أن ينال منها شيئًا، وأثابها بصدقها وقوة إيمانها، فعادت إلى زوجها دون أن يمسها سوء، فهي الطاهرة الحافظة المؤمنة المحتسبة، هي نعم الزوجة والصاحبة ونعم الأخت ونعم النصير.

عاد الخليل عليه السلام وزوجته سارة ومعهم من الأنعام والعبيد والمال الجزيل من مصر إلى أرض اليمن ومعهم هاجر المصرية. وهنا سأل إبراهيم الله تعالى ذرية طيبة، فوهبته سارة جاريتها، لأنها امرأة لا تلد، وكانت تقول عسى أن يرزقنا الله منها ذرية، فحملت هاجر واقترب موعد ولادتها، فولدت غلامًا سويًّا زكيًّا أسموه إسماعيل، فساقت سارة البُشرى لحبيب القلب المهاجر، رفيق الدرب، ولكن تغلبت الفطرة وطبيعة الأنثى الغيورة على زوجها، إذ تعاظمت هاجر عليها تتفاخر بحملها، مما جعلها لا تقوى إلا على الشعور بالغيرة تجاه هاجر وابنها.

قال ابن القيم رحمه الله: إن سارة امرأة الخليل غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه، اشتدت

غيرة سارة، فأمره الله تعالى أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها في أرض مكة، لتبرد عن سارة حرارة الغيرة، وهذا من رحمته ورأفته.. فرحل إبراهيم بزوجه هاجر وابنه إسماعيل إلى مكة المكرمة.. وتركهما بهذا الوادي؛ استجابة لأمر الله سبحانه، ثم عاد إلى أرض فلسطين حيث زوجته سارة، ولم تستطع سارة أن تطوي الجراح والألم، فأصبح فؤادها يطوق إلى الولد.. فكانت البشارة. قال تعالى: "ونجيناه ولوطًا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين. ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين. وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين".

كانت البشرى بمثابة الجائزة لها على صبرها، وها هي تبدو غير مصدقة لما ساقت إليها الملائكة هذه البشرى، (فصكت وجهها) بأصابعها إظهارًا للتعجب، وقالت: "عَجُوزٌ عَقِيْمٌ"، "ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيء عَجِيْبٌ. قَاْلُوا أَتَعْجَبِيْنَ مِنْ أَمْرِ اللَّه"، أي قالت الملائكة لها لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون. فلا تعجبي من أمر هذا وإن كنت عجوزًا عقيمًا، وبعلك شيخًا كبيرًا، فإن الله على ما يشاء قدير. نسيت سارة أن الملائكة هم الذين يحملون البشرى من عند الله، فردت الملائكة أنها حقيقة يا آل البيت، لا تعطى إلا لمن أحبه الله وكان من المقربين، قال سبحانه: "رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ"، أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة، ويخصكم بالإنعام به يا أهل النبوة، فليست بمكان عجيب، وهو كلام مستأنف علل به إنكار التعجب كأنه قيل: إياك والتعجب؛ لأن

أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم، فوهبها الله إسحاق وعمرها تسعون عامًا، وقيل: تسع وتسعون عامًا.

إن هذه القصة حملت لنا معانٍ كثيرة، لقد تحملت سارة الكثير والكثير في رحلتها المباركة مع زوجها، تركت وطنها الذي نشأت فيه، وهاجرت مع زوجها إبراهيم عليه السلام فرارًا بدينها إلى أرض مصر؛ فتتعرض معه لفتنة كبيرة فيها فينجيهما الله عز وجل، وتتوالى الأحداث عليها وهي متمسكة صابرة وقوية. إن هذا الشأن إنما جاء لصبر سطرته سارة المؤمنة المحتسبة، الزوجة والأم، فكان الجزاء كرامة بعد كرامة، إيمانها قاوم الطغاة، وحسن توكلها على الله جلب لها الخيرات، فكان نسلها من أولو العزم من الرسل الأكرمين أبناء الأكرمين، لقد تركت الصديقة سارة صفحات ساطعة في التاريخ، حتى ماتت وقد ضربت لنا المُثُل، وتركت خلفها ما يجب أن تقتضي به كل نساء العالمين.

أم العرب " هاجر أم نبي اللّه إسماعيل "عليه السلام"

هي المصرية المهاجرة زوجة نبي الله إبراهيم عليه السلام، وأم نبي الله إسماعيل عليه السلام، كان ملك مصر قد أهداها للسيدة سارة زوجة إبراهيم عليه السلام لما قدمت مصر. وقد ذكرت كتب التاريخ روايات عدة عن موطنها، فقيل: منف، وأنها كانت زوجة لأحد الأمراء الذين قتلوا أثناء مواجهة المصريين للهكسوس، وتم أسرها بعد ذلك، وقيل: قرية "دنين"، وقيل: مدينة "بلوز" وهذا هو المشهور. ولم تذكر مؤلفات التاريخ أو السير عن اسمها سوى ما ذكرناه: هاجر المصرية.

كانت هاجر جارية ذات هيبة وجمال، فوهبتها سارة لإبراهيم عليه السلام، وقالت: خذها لعل الله يرزقك منها ولدًا. وكانت سارة بنت هاران قد مُنعت الولد حتى أيست، فرُزق إبراهيم من هاجر بالولد، إذ ولدت إسماعيل ولهذا قال النبي ﷺ: "إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا.

عندما حملت هاجر من نبي الله إبراهيم ارتفعت نفسها وشعرت بالغبطة والفخار، فغارت منها سارة واشتدت غيرتها، وأسرعت تشتكي لخليل الرحمن؛ طالبة منه أن يغيب وجهها عنها، فقال لها: افعلي بها ما شئتي. فقالت: لا تسكنان في هذا البلد، فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه

السلام أن يأتي مكة وليس بها يومئذ نبت، وعلمت هاجر ما كان من أمرها، فأسلمت وجهها لله رب العالمين، طاعة له وطاعة لأمر زوجها خليل الله، فأوحى الله عز وجل إلى إبراهيم عليه السلام أن خذ هاجر وابنها إسماعيل، واخرج إلى الأرض المباركة، تلك البقعة التي أراد الله تعالى أن يبارك فيها للعالمين، "مكة"، أم القرى.

قال الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين: "أمره الله تعالى بالوحي أن ينقلها إلى مكة وأتى لها البراق، فركبت عليه وهاجر والطفل، ثم جاء إبراهيم عليه السلام بهاجر وابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند ضحى فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قضى إبراهيم منطلقا، وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ها هنا وليس معنا ما يكفينا؟ فلم يجبها، ومضى فتبعته هاجر، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به إنس ولا شيء؟ قالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا.

رضيت أم العرب بقضاء الله وقدره، فانطلق إبراهيم، ورجعت إلى وليدها تحتضنه وتتعهده بالرعاية، وتأمل في فضل الله ومنته.

ولقد أحسن الشاعر حيث يقول:

جـــري قلـــم القضـــاء بمـــا يكـــون   فسـيان التحـــرك والســـكون

مضى الخليل عليه السلام تاركًا خلفه الزوجة والوليد، حتى إذا كان عند الثنية ـ حيث لا يرونه ـ استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يده فقال: "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِم وَارْزُقْهم مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَهُمْ يَشْكُرُونَ"، ثم انصرف إلى أهله بالشام وتركهما عند البيت.

امتثلت هاجر لأمر ربها، واستسلمت لقضائه وهي صابرة محتسبة كلها يقين بأن الله مع المتوكلين الصابرين المحتسبين، فظلت في هذا الوادي مع صغيرها تأكل من ذلك الزاد وتشرب من الماء حتى نفدا، فخوى بطنها ويبس ريقها وجف ضرعها، حتى لم تجد لبنًا لترضعه لصغيرها، أو ماء ماء تبل صداه، حيث ثقلت عليه وطأة الجوع وتعسرت أن تجد ما تسد به رمقه، فقد ذهب كل شيء.

جعلت تنظر إليه يلتوي، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا قرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف ذراعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى إذا جاوزت الوادي ثم أتت المروة، فقامت عليه ونظرت هل ترى احدًا، فلم تر أحدًا. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: "فلذلك سعى الناس بينهما"، ثم جاءت إلى إسماعيل عليه السلام وهو يدحض الأرض بقدميه وقد نبعت العين،

وهي زمزم، فجعلت تفحص الأرض بيدها عن الماء، وكلما اجتمع أخذته وجعلته في سقائها وهي تفور بعدما تغرف، وقيل: إن الذي أنبع الماء جبرائيل، نزل إلى هاجر وهي تسعى في الوادي، فسمعت صوته، فقالت: قد أسمعتني فأغثني فقد هلكت ومن معي، فجاء بها إلى موضع زمزم فضرب بقدمه ففارت عينًا، فتعجبت، فجعلت تفرغ في شنها، فقال: لا تخافي الظمأ. قال ابن عباس، قال النبي ﷺ: "يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم"، أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا معينًا. قال: فشربت وأرضعت وليدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن هاهنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. وفي رواية: قال النبي ﷺ: "يرحمها الله لو تركتها لكانت عينا سائحا".

قال مُحَمَّد بن سيرين: كان أبو هريرة إذا حدث هذا الحديث يقول: "فتلك أمكم يا بني ماء السماء يقصد هاجر ؓ.

وعن ابن عباس قال: إن أول من سعى بين الصفا والمروة لأم إسماعيل. وإن أول ما أحدث نساء العرب جر الذيول لمن أم إسماعيل. قال: لما فرت من سارة، أخرت من ذيلها لتعفي أثرها.

كانت قبيلة جرهم تسكن بوادي قريب من مكة، ولزمت الطير الوادي حين رأت الماء، فلما رأت جرهم الطير لزمت الوادي، قالوا: ما لزمته إلا وفيه ماء، فجاءوا إلى هاجر وقالوا: لو شئت لكنا معك، فآنسناك والماء ماؤك، قالت: نعم، فكانوا معها حتى شبَّ إسماعيل وتعلم

العربية منهم وأعجبهم حين شبَّ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم. لقد كان فيما مضى فرج بعد الشدة وفرح بعد الحزن. لقد أتم الله النعمة على هاجر وابنها إسماعيل عليه السلام، وساق إليهم من يسكناهم في هذا الوادي، ليعمر وتزول عنه الوحشة، كانت إشارة الله واستجابته لدعاء نبيه إبراهيم عليه السلام "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِيَّتِي بِوَادٍ غَيْرَ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيْمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُم يَشْكُرُونَ".

ما إن عاشت هاجر في راحةٍ إلا وجاءها الاختبار، فهذه من الأمثلة النادرة ما إن تمر بابتلاء إلا وتبتلى فتصبر صبرًا جميلًا، لقد اصطفاها الله ورسوله وخليله، وجعل منها أمة منهم الأعلام والقادة والسادة، حتى يختم الرسالات بسيد البشر محمَّد ﷺ. وقد جاءها الاختبار الأكبر عندما بلغ إسماعيل السعي والكبر، إذ جاء وقت الوفاء بالنذر لرؤيا إبراهيم إنه يذبح ابنه إسماعيل.

حين أُمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه، قال له: يا بني خذ الحبل والمدية، ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب ليحطب أهلك منه، قبل أن يذكر له شيئًا مما أُمر به، فلما وجه إلى الشعب اعترضه عدو الله إبليس ليصده عن أمر الله في صورة رجل، فقال: أين تريد أيها الشيخ؟ قال: أريد الشعب لحاجة لي فيه، فقال: والله إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك، فأمرك بذبح بنيك هذا، فأنت تريد ذبحه، فعرفه إبراهيم، فقال: إليك عني، أي عدو الله، فوالله لأمضين لأمر ربي فيه، فلما يئس عدو الله إبليس من

إبراهيم اعترض إسماعيل وهو وراء إبراهيم يحمل الحبل والشفرة، فقال له: يا غلام هل تدري أين يذهب بك أبوك؟ قال: يحطب أهلنا من هذا الشعب، قال: والله ما يريد إلا أن يذبحك، قال: لم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك، فقال: فليفعل ما أمره به ربه، فسمعًا وطاعة، فلما امتنع منه الغلام ذهب إلى هاجر أم إسماعيل وهي في منزلها، فقال لها: يا أم إسماعيل، هل تدرين أين ذهب إبراهيم بإسماعيل، قالت: ذهب به يحطبنا من هذا الشعب، قال: ما ذهب به إلا ليذبحه، قالت: كلا هو أرحم به وأشد حبًّا له من ذلك، قال: إنه يزعم أن الله أمره بذلك، قالت: إن كان ربه أمره بذلك فتسليمًا لأمر الله، وأجمعوا لأمر الله بالسمع والطاعة.

قال تعالى: "فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ".

مر الاختبار وهاجر أشد إيمانًا وتسليمًا، حاورها الشيطان يريد أن يذهب بها بعيدًا عن طريق الرحمن، فأبت إلا أن تعتصم بإيمانها بقدرة الله وحكمته وظنها الذي لا يمكن أن يخيب في كونه لا يضيعها أبدًا، وانتظرت أن يمن الله تعالى بفضله على إسماعيل، تمت كلمة الله وحصل المقصود من الاختبار لهم، من طاعتهم لله ومبادرتهم لأمره والتسليم له، وبذلك فداه ربه بذبح عظيم جزاءً على السمع والطاعة والتسليم بقضائه وقدره.. رحمة الله وبركاته عليكم آل البيت.

عاشت هاجر مع إسماعيل عليه السلام إلى جوار بيت الله الحرام، عابدة طائعة تقية لله متوكلة عليه، تحسن الظن به حتى ماتت ودفنها إسماعيل في الحجر بجانب بيت الله، ليستقر جسدها في تلك البقعة المباركة، مهاجرة إلى الله من مصر إلى فلسطين، ومن فلسطين إلى جوار بيت الله الحرام الذي كان نعم المستقر.

لقد ضربت هاجر ، الواثقة بالله الصابرة الوفية المحتسبة، أروع مثل في التوكل على الله تعالى، وجعلت من التوكل عليه دستورًا لها "وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ" إن من الإيمان لنورًا وهاديًا، فما أحوجنا اليوم إلى تعلم هذا الدرس العظيم، وتعلم الثقة بالله من هذه المرأة المؤمنة المخلصة السيدة هاجر .

روي أن حاتم بن الأصم قال لأولاده: إني أريد الحج. فبكوا وقالوا: إلى من تكلنا؟ وكان له بنت فقالت: دعوه يذهب فليس برازق.. ولم يترك لهم شيئًا.. فخرج فباتوا جياعًا، فجعلوا يوبخون تلك البنت، فقالت: اللهم لا تخجلني بينهم. فمر بهم أمير بلد، فقال لبعض أصحابه: اطلب لي ماء، فناوله أهل حاتم كوزًا جديدًا وماء باردًا فشرب، فقال: دار من هذه؟ فقالوا: دار حاتم بن الأصم، فرمى منها صره من ذهب، وقال: من أحبني فليصنع مثلما صنعت، فرمى العسكر ما معهم من المال في هذا الإناء، فجعلت البنت تبكي، فقالت: أمها ما يبكيك وقد وسع الله علينا، فقالت: لأن مخلوقًا نظر إلينا نظرة، فاغتنينا فكيف لو نظر الخالق إلينا؟

فجميل أن نرى في أمة محمد ﷺ من يترجم توكل هاجر رضي الله عنها، ويجعل الله حسبه، إذًا لن يضيعنا الله.

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

توكلت في رزقي على الله خالقي — وأيقنت أن الله لا شك رازقي

وما يك من رزقي فليس يفوتني — ولو كان في قاع البحار العوامق

سيأتي به الله العظيم بفضله — ولو، لم يكن من اللسان بناطق

ففي أي شيء تذهب النفس حسرة — وقد قسم الرحمن رزق الخلائق

وقال أيضًا:

سهرت أعين ونامت عيون — في أمور تكون أو لا تكون

فادرأ الهم ما استطعت عن — النفس فحملانك الهموم جنون

إن ربًّا كفاك بالأمس ما كان — سيكفيك في غدٍ ما يكون

.

الخلوقة " رعلة بنت مضاض زوجة نبي الله إسماعيل عليه السلام"

عندما أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام أن يأخذ هاجر وابنها إسماعيل إلى وادي غير ذي زرع ولا أنيس بمكة، فأخذهما ثم تركهما هناك وتوجه إلى ربه بالدعاء، فقال: "ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون".

وهناك بدأ التحول والتغير بعد ظمأ الرضيع وأخذ يلتوي أمام أمه، فهرولت بين الصفا والمروة لترى شيئًا فلم تجد، حتى دحض الصغير بقدمه فظهر ينبوع الماء، فأخذت وجعلت في سقائها فشربت وارتوت هي وصغيرها شاكرة ربها على فضله ورحمته. وقد بدأت الطيور ترد ذاك الماء وتحوم حوله فأرسلت قبيلة جرهم رسلها، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. قالوا: أم إسماعيل عند الماء. فقالوا لها: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم.

قال عبد الله بن عباس: قال النبي ﷺ: "فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس، فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم".

كانت هذه المرأة هي الزوجة الأولى لنبي الله إسماعيل، ويغلب الظن بأن اسمها كان صدى بنت سعد. وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج تزوج إسماعيل يتفقد أحواله ويزوره، فسأل عن منزل إسماعيل حتى دل عليه، فلم يجده، ووجد امرأة لها فظة غليظة، فسأل امرأته فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن معيشتهم؟ فقالت: نحن بشر في ضيق وشدة وشكت إليه، فقال لها: إذا جاء زوجك فقولي له: جاء هنا شيخ من صفته كذا وكذا، وإنه يقول لك: إني لا أرضى لك عتبة بابك فحولها وانطلق، فلما جاء إسماعيل أخبرته، فقال: ذاك أبي وأنت عتبة بابي، فطلقها لكونها كثيرة الشكوى غير قانعة بحال زوجها؛ فالسعادة الحقيقية التي ينشدها إبراهيم في زوجة ابنه أن تكون من أهل الرضا، غير أن طبيعة تلك المرأة أبت ذلك حيث أكثرت من الشكوى، فقال إبراهيم "غير عتبة بابك أي طلقها". وتزوج امرأة أخرى من جُرهم هي الخلوقة رعلة بنت مضاض بن عمرو، التي انتقلت إلى بيت نبي الله وحمدت الله على ما أنعم عليها بهذا الزواج المبارك.

ولبث عندهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاها بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن معيشتهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

قال النبي ﷺ: "ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان حب لدعا لهم فيه، فهما لا يخلو عليهما أحد بعين مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل واشتم رائحة أبيه وقد غاب عنه كثيرًا فقال: هل أتاكم أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: أفأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأمرني أن أمسكك".

عاشت الخلوقة رعلة ﵂ زوجة صابرة وفية محتسبة صالحة في كنف زوجها نبي الله إسماعيل عليه السلام، ترعى حقوقه وتحفظ عليه سره، لا تأن ولا تشتكي، تداوم حسن العشرة والتبعل لزوجها، فكانت ﵂ تعلم أن البيت من أخص ما يملك الرجل، فيه سكنه وأمانه، يضع فيه حوائجه وخصائصه وما لا يحب أن يراه أو يعلمه الناس، بل أقاربه وأهله. استطاعت ﵂ أن تعين زوجها على الثقة فيها، بل وعلى تدبر أمور الحياة المعيشية، وهي صابرة محتسبة حتى وافتها المنية، فماتت ﵂ وزوجها عنها راض. قال ﷺ: "أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة".

وفي هذه القصة معانٍ لطيفة في حقوق الزوج على الزوجة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: "للمرأة ستران" قيل: ما هما؟ قال: "الزوج والقبر"، من أجل ذلك شرع الإسلام حقوقًا للزوج على زوجته، منها: حسن طاعته. قال ﷺ: "ثلاثة لا يقبل الله لهم صلاة ولا

ترفع لهم إلى السماء حسنة: العبد الآبق حتى يرجع إلى مواليه فيضع يده في أيديهم، والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى عنها، والسكران حتى يصحو".

قال الإمام الغزالي رحمه الله: "النكاح نوع رق؛ فهي (أي المرأة) رقيقة له، فعليها طاعة الزوج مطلقًا في كل طلب منها في نفسها مما لا معصية فيه.. وأن تحفظ لسانها فيه، ولا تستطيل به عليه".

وقد قيل لأعرابي مجرب: صف لنا شر النساء. فقال: "شرهن السريعة الوثبة، كأن لسانها حربة، تضحك من غير عجب، وتبكي من غير سبب، وتدعو على زوجها بالحرب . "بالهلاك"، كلامها وعيد وصوتها شديد، تدفن الحسنات وتفشي السيئات، وتعين الزمان على بعلها، ولا تعين بعلها عليه رأفة ولا عليها منه مخافة، إن دخل خرجت، وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت وإن بكى ضحكت، كثيرة الدعاء قليلة الإرعاء، تأكل لمًّا وتوسع ذمًّا، ضيقة الباع، إذا حدثت تشير بالأصابع وتبكي في المجامع، بادية من مجابها، نباحة عند بابها، وهي ظالمة وتشهد وهي غائبة، قد دلى لسانها بالزور، وسال دمعها بالفجور، ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور".

ومن وحي ما وصلنا من قصة السيدة الخلوقة زوجة نبي الله إسماعيل عليه السلام نستخلص أنه يجب على المرأة أن تحسن لزوجها، كما أحسنت السيدة رعلة لزوجها إسماعيل عليه السلام وأن تحفظ غيبته طاعة

لأوامره، وأن تبعد عن جميع ما يسخطه، وأن تحسن معاملة ذويه إكرامًا له، فتحسن معاملة زوجها وتحفظ له حقوقه حيًّا وميتًا، فهذه فاطمة بنت عبد الملك الخليفة، زوجة الخليفة عمر بن عبد العزيز، لما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ووفقه الله للزهد والورع طلب من زوجته فاطمة أن تضع ذهبها في بيت مال المسلمين، باعتبار أن أباها أعطاها من حق بيت المسلمين، فأطاعته وأعطته الذهب، فلما مات عمر بن عبد العزيز، قال الخازن لها: إن الذهب موجود في بيت مال المسلمين، وإن شئت أرجعته لك، فقالت: ما كنت لأطيعه حيًّا وأعصيه ميتًا، وأبت أن تأخذه. فلله درها من امرأة عظيمة تسير على درب الخلوقة رعلة ﷺ جميعًا.

قال رجل لزوجته:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ... ولا تنطقي في صورتي حين أغضب

ولا تنقريني نقرك الدف مرة ... فإنك لا تدرين كيف المغيب

ولا تكثري الشكوى فتذهب ... بالهوى ويأباك قلبي والقلوب تقلب

فإني رأيت الحب في القلب والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

الصابرة " ليا بنت يعقوب زوجة نبي الله أيوب عليه السلام "

ذكر أهل العلم والتفسير أن اسم زوجة أيوب عليه السلام هو "ليا"، وقيل: "إليا" بنت يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وقال السيوطي رحمه الله: واخرج عن ابن عساكر عن وهب بن منبه: أن زوجة أيوب عليه السلام، اسمها "رحمة" بنت ميشا بن يوسف بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. أما زوجها فهو نبي الله أيوب عليه السلام. وحكى ابن عساكر: أن أمه بنت لوط عليه السلام، وقيل: كان أبوه ممن آمن بإبراهيم عليه السلام يوم ألقي في النار فلم تحرقه. وقد قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب عليه السلام رجلًا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه: من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض البثنية من أرض جوران.

كان لنبي الله أيوب عليه السلام ذلك كله، وكان له الأولاد والأهلون الكثير، فسلب من ذلك جميعه، وابتلي في جسده بأنواع البلاء، ولم يبقى منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله عز وجل، وكانت زوجته ليا رضي الله عنها وأرضاها صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد وما يخص بها من المصيبة بالزوج وضيق اليد، وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة فإنا لله وإنا إليه راجعون . وهي في ذلك كله صابرة محتسبة ذاكرة الله عز وجل في الليل والنهار، ولما طال مرض الزوج حتى عفه الجليس وأوحش منه الأنيس، وأخرج من بلده وألقي خارجها وانقطع عنه الناس ولم

يبق أحد يحنو عليه، كانت هي إلى جواره ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته، وقد ضعف حالها ومالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقود بأوده.

نعم الزوجة الصابرة المحتسبة، وما أجمل الصبر فيك، فأنت عنوان الكمال، ضربت للنساء أروع نموذجًا للصبر، فكنت تاجًا يعلو كل الهامات وكنت نعم الزوجة المخلصة الصابرة، وقفت بجوار زوجك نبي الله أيوب عليه السلام في محنته ـ رضي الله عنك ـ لم تتخل عنه وتجملت بالصبر، فلما اشتد عليه البلاء وطال به المرض لم تتأففي أو تضجري أو تجزعي، بل كنت متماسكة طائعة صابرة تدعو الله أن يكشف ما ألمَّ بزوجك، وكان عليه السلام مؤمنًا قانتًا ساجدًا عابدًا لله، كثير الاستغفار والتسبيح، فأول ما نزل به البلاء في ماله صبر واحتسب، ولسان حاله يقول: عارية الله قد استردها ووديعة كانت عندها فأخذها، نعمنا بها دهرًا، فالحمد لله على ما أنعم، وسلبنا إياها اليوم، فله الحمد معطيًا وسالبًا، راضيًا وساخطًا، نافعًا وضارًّا، هو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، ثم يخر أيوب ساجدًا لله رب العالمين. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: "أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل".

وقد اختلف أهل العلم في مدة بلواه على أقوال: فزعم وهب أنه ابتُلي ثلاث سنوات لا تزيد ولا تنقص. وقال أنس: ابتلي سبع سنوات

وأشهر، وقال حميد: مكث في بلواه ثماني عشرة سنة، وقال السدي: تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب، وكانت امرأته تأتيه بالرماد وتفرشه تحته وتعينه على قضاء حاجته، فلما طال عليه البلاء والمرض قالت: إنك رجل مجاب الدعوة، ادع الله أن يشفيك. فقال كنا في نعماء سبعين عامًا فلنصبر في البلاء سبعين سنة.

دعا أيوب ربه، فقال: "رب أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين"، كرر ذلك، فقيل له: ارفع رأسك فقد استجيب له، "اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب"، وردَّ الله إليه جسده وصورته. قال ابن عباس: "وألبسه الله حلة من الجنة، فتنحى أيوب وجلس في ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله أين هذا المبتلى الذي كان ها هنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، وجعلت تكلمه ساعة. قال: ولعل أنا أيوب. قالت: أتسخر مني يا عبد الله. قال: ويحك أنا أيوب، قد رد الله عليَّ جسدي.

كانت المكافأة للزوجة الصابرة المحتسبة أن رد الله إليها زوجها سليمًا مُعافى، وجزاها خيرًا عن طول ثباتها ووقوفها إلى جانبه تشد من أذره وترعاه، وقد رزقهما الله تعالى ـ على أكثر الأقوال ـ ذرية صالحة، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله عز وجل واحتسب وأطاعه. وقد سبقت رحمة الله غضبه على نبيه أيوب، فغفر له ورد عليه أهله وماله ومثلهم معهم، ليكون ذلك للعالمين آية وعبرة، وبشر أولي العزم الصابرين.

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: "لما عافي الله عز وجل أيوب عليه السلام، أمطر عليه جرادًا من ذهب، قال: فجعل يأخذه ويجعله في ثوبه، فقيل له، يا أيوب أما تشبع؟ قال: ومن يشبع من رحمة الله".

هذا هو الفرج بعد الشدة والمخرج من البلاء لمن اتقى الله وأطاعه، ولاسيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة، المكابدة الصديقة البارة الراشدة ﷺ، التي كانت نعم العون لزوجها وسندًا له في المصائب والملمات. لقد ضرب الله المثل في أيوب عليه السلام وزوجته عندما امتحنهما، فرضوا بقضاء الله ولم يجزعا، ولله در القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

قال ﷺ: "لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أُحد ذهبًا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار".

ولقد أحسن أبو العتاهية في نظمه، حيث يقول:

اصبر لكل مصيبة وتجلد واعلم بأن المرء غير مخلد

أو ما ترى أن المصائب جمة وترى المنية للعباد بمرصد

من لم يصب ممن ترى بمصيبة هذا سبيل لست عنه بأوحد

فـإذا ذكـرت محمـدًا ومصابـه فاجعل مصابك بالنبي محمـد

ومن قصة السيدة الصابرة المحتسبة "ليا بنت يعقوب" نستخلص الكثير من العبر التي لابد لها أن تصل بنا إلى القول: عالج المصائب بالصبر ولا تجزع، فإن البلاء قد يرفعك في درجات الجنة. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله فما يبلغها بعمل، فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها". وفي الحديث: "إن عظم الجزاء من عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط". ولا شك في شدة حاجة المسلم إلى الصبر والرضا بالقدر خيره وشره، والتسليم بقضاء الله وقدره والبعد عن الشكوى إلا إليه والالتجاء إلى الله بالدعاء كما فعل أيوب عليه السلام، وكما فعلت زوجته الصابرة ليا بنت يعقوب.

قال السهيلي: واسم أم موسى أيا رخا: وقيل أيا ذخت وقيل: يوكابد بنت هاند بن لاوي بن يعقوب عليه السلام. وزوجها: عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام. وهي من بني إسرائيل الذين نزحوا إلى مصر منذ عهد يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وقد قص الله تعالى علينا طرف من سيرتها في كتابه العزيز في سياق ولادة ابنها موسى عليه السلام.

وقد قال السدي: كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا في منامه، أن نارًا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل وأحرقت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة والقافة والحزاة، فسألهم عن رؤياه، فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنوا إسرائيل منه ـ (يعنون بيت المقدس)ـ رجل يكون على وجهه هلاك مصر ويسلب الملك منك وتهلك على يديه. فأمر فرعون بني إسرائيل أن لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذُبح، ويترك الجواري، وقال للقبط: انظروا مماليككم الذين يعملون خارجًا، فأدخلوهم واجعلوا بني إسرائيل يلون ذلك".

فذلك حين يقول الله تعالى: "إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم".

كان ما أراد فرعون مصر، حيث أخذ يقتل ويذبح في أطفال بني إسرائيل، حتى شكوا إليه القبط قلة بني إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور، فلما خشي أن يفنى الكبار مع قتل الصغار ويصير القبط من يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون، أمر فرعون بقتل الأبناء عامًا وأن يتركوا عامًا، فولد هارون عليه السلام في عام المسامحة وكان موسى في عام القتل، فضاقت أمه ذرعًا واحترزت من أول ما حبلت ولم يكن يظهر عليها، فلما وضعت ألهمت واتخذت له تابوتًا فربطته في حبل وكانت دارها متاخمة للنيل، وكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد وضعته في التابوت، وأرسلته البحر وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهب استرجعته إليها بذلك الحبل.

قال تعالى: "وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين".

تمضي معنا الآيات لتقص لنا نبأ موسى عليه السلام، وقد اختلف أهل التأويل في الحال التي أُمرت أم موسى بها أن تلقي موسى في اليم. فقيل: أمرت أن تلقيه في اليم بعد ميلاده بأربعة أشهر وذلك حال طلبه من الرضاع أكثر مما يطلب الصبي بعد حال سقوطه من بطن أمه، وقال آخرون: بل أمرت أن تلقيه في اليم بعد ولادتها إياه، وفور رضاعها له الرضاعة الأولى. وفي القول الأول ظن الصواب، إذ أن الله تعالى ذكر أمره أم موسى أن ترضعه، فإذا خافت عليه من عدو الله فرعون وجنده أن تلقيه في اليم، وجائز أن تكون خافتهم عليه بعد أشهر من ولادتها إياه.

كانت أم موسى زكية النفس نقية القلب، فهي على دين آبائها يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام، وكانت مهيأة لحمل وولادة نبي من أنبياء الله في بني إسرائيل، فجاءها الوحي والإلهام ليطمئن قلبها ويرشدها إلى ما تفعله. وهنا لنا وقفة حول طبيعة هذه المرأة المتوكلة، فهي على الرغم مما تملكه كامرأة من عواطف الرحمة والحنان والحكمة والإيمان والصبر وقوة التحمل، نراها تخالف طبيعة الأنثى وتجنح إلى مرضاة ربها وطاعته، فتتغلب على عواطفها وتضبط أحاسيسها "لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين".

استجابت هذه المرأة العظيمة المتوكلة لأمر ربها، فألقي في خلدها وروعها ألا تخافي ولا تحزني، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك، وإن الله سيجعله نبيًّا مرسلًا، فاستجابت لأمر ربها وألقت بالتابوت في اليم، فتوارى عنها وحين أتاها إبليس فقالت في نفسها: ما الذي صنعت بنفسي؟ لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إليَّ من أن ألقيه بيدي إلى حيتان البحر ودوابه، فلما ألقته قالت لأخته تتبعي أثره "وقالت لأخيه قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون".

فأقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة ويخفضه أخرى، حتى أدخله بين أشجار عند دور فرعون، فخرجت جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن، فوجدن التابوت فأدخلنه إلى آسية، وظنن أن فيه مالًا، فلما فتح ونظرت إليه آسية وقعت عليها رحمته وأحبته وأخبرت به فرعون.

قالت امرأة فرعون: "قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا وهم لا يشعرون".

قال فرعون: قرة عين لك، أما لي فلا. وقد قال مُحَمَّد بن قيس: قال رسول الله ﷺ: لو قال فرعون: قرة عين لي ولك لكان لهما جميعا". وكذلك قال ﷺ: "والذي يحلف لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت، لهداه الله به كما هدى به امرأته، ولكن الله حرمه ذلك".

أصبح فؤاد أم موسى فارغًا من كل شيء إلا من موسى وفزع قلبها عليه، فحزنت وكادت أن تنسى عهد الله إليها، حتى هذا الوعد الذي وعده لها بأن يرد ابنها إليها، كادت أن تهجر توكلها على الخالق الكريم وتنسى ذلك كله، حتى كادت أن تبدي به لولا أن ربط الله على قلبها، وأرادوا له المرضعات، فلم يأخذ من أحد من النساء، وذلك قوله: "وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون".

ولما أرسل موسى عليه السلام مع جواري امرأة فرعون إلى السوق يلتمسن له المرضعات، رأته أخته وعرفته، فأسرعت تخبرهن بأمر أمها وقدرتها على رضاعته، فأخذوها وقالوا: ما يدريك ما نصحهم له؟ هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك. فقالت: نصحهم له شفقتهم عليه ورغبتكم في قضاء حاجة الملك ورجاء منفعته. فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر

وجاءت أمه، فلما أعطته ثديها أخذه منها، فكادت تقول: هذا ابني.. ليس ابن فرعون كما نسبتموه إليكم، لكن الله عصمها.

قال ابن عباس: "لما قالت ذلك قالوا لها: ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه؟ فقالت: رغبة في صهر الملك ورجاء منفعته، فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذته أمه فلما أرضعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وذهب البشير إلى آسية يعلمها بذلك، فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها وأن تحسن إليها فأبت عليها، وقالت: إن لي بعلًا وأولادًا ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معي فأرسلته معها ورتبت لها رواتب وأجرت عليها النفقات والكساوي والهبات، فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها".

وفي رواية أخرى: "أن أباه عمران مات بعد أربعين يومًا من ولادته، وأن أمه عرضت على فرعون، فقال لها: أرى لك لبنًا غزيرًا فهل لك من ولد؟ فقالت: وهل ترك الملك لأحد ولدًا؟ فظن أن ولدها قتل مع من قتل ولم يعلم أنها امرأة عمران، فقالت لها آسية: أحب أن تكوني عندي. فأقامت عندها سنتين حتى استغنى - "أي موسى عليه السلام". عن الرضاع، فلما همت أمه بالانصراف أمرت لها آسية بحمل من الذهب والثياب الفاخرة وذهبت غنية مستبشرة". فذلك قوله تعالى: "فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن".

لقد منَّ الله على أم موسى المؤمنة الصابرة المتوكلة، إذ رد إليها ابنها موسى عليه السلام وحفظه من عدوه، وأيقنت أم موسى أن الله عز وجل منجز وعده، فهذا وعد الله إليها: "إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين". وكانت غيبة موسى عن أمه ثلاثة أيام، واتخذه فرعون ولدًا له فدعي ابن فرعون، فلما تحرك الغلام حملته أمه إلى آسية زوجة فرعون فأخذته تلاعبه وناولته فرعون، فلما أخذه إليه أخذ الغلام بلحيته فنتفها، فقال فرعون: عليَّ بالذباحين يذبحونه هو هذا. قالت آسية: لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا، إنما هو صبي لا يعقل وإنما فعل ذلك عن جهل، وقد علمت أنه ليس في مصر امرأة أكثر حليا مني، أنا أضع حليًّا من ياقوت وجمرًا، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه، وإن أخذ الجمر فإنما هو صبي، فأخرجت له ياقوتها ووضعت له طشتًا من جمر، فجاء جبريل فوضع يده في جمرة فأخذها فطرحها موسى في فمه فأحرقت لسانه، وفي هذا قول الله تعالى: "واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي".

كبر الصبي، فنودي بموسى بن فرعون، وكان يركب مركب فرعون ويلبس ما يلبس وامتنع به بنو إسرائيل ولم يبق قبطي يظلم إسرائيليًّا خوفًا منه لشدة عوده وقوته وصلابته، وعاشت أم موسى ما شاء الله لها أن تعيش ترى ابنها بالقرب منها ما شاء الله لها أن تراه وتفرح به وتتحسس أخباره حتى بلغ موسى عليه السلام الرشد "ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين. ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من

عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين. قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم. قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين. فأصبح في المدينة خائفا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين. فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارًا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين. وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين. فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين".

تسارعت الأحداث وخرج موسى عليه السلام خائفا من مصر إلى مدين وانقطعت أخباره عن أمه، بينما لبث موسى عليه السلام سنين في مدين وتزوج فيها، قبل أن يدفعه الحنين إلى أرضه ووطنه وأمه فيوطن نفسه على العودة إلى الديار، حتى إذا نزل بالأرض المقدسة "طور سيناء"، نزل عليه الوحي وكلمه الله عز وجل لينال موسى عليه السلام الكرامة والنبوة ويعود إلى مصر، لتستقبله أمه بقلب يهفو إلى لقياه وعين تباركه وترعاه وترى فيه تحققًا لوعد الله تعالى الذي حمله الرسالة وأعانه على تحقيق خلاص بني إسرائيل من فرعون وهامان وجنودهما. وقد عاصرت أم موسى دعوته وآمنت به وناصرته وظلت إلى جواره حتى لقيت ربها عز وجل.

هذه هي الأم المتوكلة على الله الواثقة بوعده ونصره، استطاعت أن تمنح نفسها وجوارحها له سبحانه وتعالى، فاطمأن قلبها وقضت حياتها

دون خوف أو حزن ﷺ. هي الشخصية العظيمة والأم المتوكلة الربانية الصابرة المثابرة التي أذعنت لأوامر الله، عندما أوحى الله إليها "أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين"، دون تردد أو تسويف. هي الأم الحانية التي تلقي بفلذة كبدها ونور بصرها في النيل، لا تعلم أتكتب له الحياة أم لا؟ أتصنع أكفان الموت بيديها لصغيرها؟ وإذا ما نجا من الموت في اليم، فهل يفلت من قبضة آل فرعون إذا علم أن موته في هذا التابوت ـ "طفل بني إسرائيل"؟.

لقد كان من العسير على هذه الأم، بل على أي أم أن تصنع ما صنعت أم موسى عليه السلام، وما أحوجنا اليوم إلى مدرسة أم موسى في الانصياع لأوامر الله وحسن التوكل عليه والصبر والثبات، فسلام على أم موسى في العالمين، فهي الصابرة المحتسبة الزكية الشاكرة لأنعم الله، الواثقة بموعود الله الذي لا يضيع وعده في الدنيا والآخرة.

الناصحة " أخت موسى.. حفظته صغيرًا وأعادته إلى أمه "

لقد اختلف العلماء والمفسرون في اسم أخت سيدنا موسى عليه السلام، فمنهم من يقول إن اسمها كان «مريم» بنت عمران أخت كليم الله سيدنا «موسى بن عمران»؛ وإن السيدة مريم العذراء سُميت على اسمها لأنهم قديما كانوا يسمون أبناءهم على أسماء الصالحين ممن سبقوهم، ومن العلماء من يؤكد لنا أن اسم أخت سيدنا موسى الحقيقي «كلثم». حيث ذكر الإمام القرطبي أن أخت موسى، هي: مريم بنت عمران، ليست أم عيسى عليه السلام، لكنه توافق أسماء وذكر الماوردي عن الضحاك: أن اسمها «كلثمة»، وقال السهيلي: اسمها «كلثوم».

تلك الفتاة البارة بأمها، المطيعة لأمرها، المؤمنة الحكيمة التي وقفت بجوار أمها لحظة بلحظة بعد أن وضعت الأم وليدها الصغيرالذي كان محكومًا عليه بالذبح! لولا أن تعهدته أخته منذ لحظة ميلاده بالرعاية والاهتمام والكتمان حتى لا يصدرمنه صوت فتكون نهايته! فقد كان جواسيس فرعون الطاغية في كل مكان تتنصت على الأبواب.

وهى أيضًا تلك الفتاة الذكية الواعية التي كانت لأمها العين البصيرة وصاحبة البصر الثاقب التي لم تغفل عن أخيها لحظة واحدة حينما التقطه آل فرعون.

وكانت أخت موسى، كما يتضح من سيرتها، فتاة عاقلة مؤمنة مطيعة على قدر عال من الإيمان والذكاء وتحمل المسؤولية.

ذكرها الله عز وجل في القرآن الكريم في الآية الأربعين من سورة طه: (إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى)، «سورة طه: الآية ٤٠». كما ذكرها في الآية الثانية عشرة من سورة القصص: (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ* وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)، «سورة القصص: الآيتين ١١– ١٢».

وذكر السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة، أن فرعون رأى في منامه كأن نارًا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميعَ القبط ولم تضر بني إسرائيل. فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحزقة والسحرة وسألهم عن ذلك؟ فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه. فأمر بقتل الغلمان وترك النسوان. ولهذا قال الله تعالى: "وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ" وهم بنو إسرائيل "وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ"، أي الذين يؤول ملك مصر وبلادها إليهم "وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ؛ أي سنجعل الضعيف قويا والمقهور قادرا والذليل عزيزا، وقد جرى هذا كله

لبني إسرائيل كما قال تعالى: "وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إسرائِيلَ بِمَا صَبَرُوا". وقال تعالى: "فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إسرائِيلَ". وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله. والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز ألا يوجد موسى، حتى جعل رجالا وقوابل يدورون على الحبالى ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكرا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته. وعند أهل الكتاب أنه كان يأمر بقتل الغلمان لتضعف شوكة بني إسرائيل فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم. وهذا فيه نظر بل هو باطل، وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى كما قال تعالى: "فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ" ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى "أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا". فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولا حذرا من وجود موسى. هذا، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور وخشي أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون. فأمر فرعون بقتل الأبناء عاما، وأن يتركوا عاما، فذكروا أن هارون عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء وأن موسى عليه السلام ولد في عام قتلهم، فضاقت أمه به ذرعا واحترزت من أول ما حبلت، ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل. فلما وضعت ألهمت أن تتخذ له تابوتًا ربطته في حبل وكانت دارها متاخمة للنيل فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت فأرسلته في البحر وأمسكت

طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به. قال الله تعالى: "وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ، فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ، وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ".

إيمان هذه الفتاة يتضح لنا منذ الوهلة الأولى، ليس فقط لأنها شبت في أسرة مؤمنة؛ ولكن لأنها وضعت أمام عينيها هدفًا نبيلًا ساميًا؛ ألا وهو إرضاء ربها في إرضاء أمها والبر بها.

ولأن أخت موسى أطاعت أمر ربها في أمها كان التوفيق حليفها في كل المهام الموكلة إليها؛ فبإيمانها استطاعت أن تثبت أمام حاشية فرعون ولم تفضح أمرها وبذكائها وفطرتها الربانية استطاعت أن ترجع أخاها الوليد إلى أمه مرة أخرى بأن أخبرتهم بأنها على علم بمكان مرضعة جيدة للوليد الذي أصبح لديهم الذي يرفض كل المرضعات.

كانت أم موسى في تلك الأثناء تجلس في بيتها قلقة خائفة، وهي على وشك أن تضع مولودها، فلما جاءها المخاض، دعت قابلة لتدبر أمر الولادة، فلما وضعت أم موسى حملها، كتمت أمره عن الناس؛ مخافة أن يصيبه ما يُصيب أمثاله من قاتل الأطفال. ثم ألهمها الله أن تضع وليدها في

صندوق وتلقي به في نيل مصر، مسلِّمة أمرها إلى الله، عسى أن يقع في يد بعيدة تحفظه مما يراد به.

"وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" (سورة القصص الآية ١١).

وقد طلبت أم موسى من ابنتها أن تتبع أثر أخيها؛ لتنظر ماذا سيكون من أمره. سارت أخت موسى تتتبع أثر أخيها هنا وهناك، وما كان أشد هلعها حينما حُمِل الصندوق إلى فرعون ولم تكد تقع عين امرأة فرعون على هذا الطفل الوليد الجديد حتى ألقى الله محبته في قلبها، فطلبت من زوجها أن يكون ابنا لها، وبقدر ما فرحت امرأة فرعون بهذا المولود الذي دخل حبه إلى قلبها من غير استئذان، بقدر ما كان قلب أم موسى يكابد الهم ويعتصر إشفاقًا على وليدها، بيد أنها كانت واثقة بحفظ الله له ورعايته إياه. وأخذت امرأة فرعون تحضر للمولود الجديد مرضعة تقوم بشأنه، بيد أن موسى الرضيع لم يقبل ثدي أي واحدة من المرضعات، "وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ" (سورة القصص الآية ١٢).

ثم هدى الله أخت موسى إلى بيت فرعون، فطلبوا منها أن تأتي بمن يكفله، فجاءت بأمها على أنها مرضعة من المرضعات، فعرضوا عليه ثديها فقبله، فطلبوا منها أن تأخذ الطفل وتعتني به ريثما يكبر ويشب عن الطوق.

قال سبحانه: "فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" (سورة الشعراء)

بعد أن أمر الله تعالى أم موسى بوضع وليدها في الصندوق الخشبى المليئ بالفتحات للتنفس، ثم إلقائه في نهر النيل خوفا من أن يعلم بأمره فرعون وجنوده ويقتلوه في الحال، أطاعت أم موسى أمر ربها ونفذته.

وما كان بيد أم موسى حيلة غير أنها أخبرت ابنتها لكي تتبع آثار الصندوق الخشبي في الماء وألا يغيب عن عينيها ولو لحظة ولم تكن المهمة سهلة، فقد ظلت أخت موسى تتبع أثر أخيها الساعات الطوال وهو يسير مع التيار فترفعه موجة وتخفضه أخرى، وربما رآها أحد جنود فرعون وهى تسير، فتظاهرت بعدم الاهتمام ولم تركز نظرها على الصندوق طول الوقت وإلا كان افتضح أمرها، والتزمت «كلثم» جانب الحكمة وأخذت بالأسباب واستعانت بالله على تحقيق مطلبها، كما هو شأن المتوكلين، فلم تغفل لحظة عن الأمانة التي حملتها أمها إياها وانطلقت تتبع أثر أخيها الوليد لتعلم خبره عن بُعد.

واتخذت الأخت لنفسها جانبا من جوانب القصر بعيدا عن الريبة والتهمة وظلت تتبع خبر أخاها بعينها وقلبها بعد أن التفت حوله حاشية القصر. غير أنه لحسن الحظ كانت حاشية إمرأة فرعون هي التي سبقت لالتقاط الوليد وأعطته لسيدة القصر السيدة «آسيا» التي فرحت به أيما فرح واستبشرت به خيراً.

وظلَّت أخت موسى تتعقب أثر أخيها حتى رأت امرأة فرعون وهي تأمر خدمها أن يأتوا بالصندوق العائم في النيل، وعندما عرفت أن طفلًا فيه، طلبت رؤيته فأحبته، ثم طلبت من زوجها فرعون أن يتبنيا الطفل ليكون ابنا لهما وحاولت أن تجعل المراضع يرضعن الطفل، ولكنه عاف المراضع، ولما رأت أخت موسى حيرة فرعون وزوجته عندما امتنع الطفل عن المراضع، استغلت هذه الفرصة، فدخلت وعرضت وتكلمت بهدوء: "هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ..."، (سورة القصص: الآية ١٢)، ومن حرصها وتلهفها على أخيها، زادت فقالت: (.. وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)، «سورة القصص: الآية ١٢». وهنا شَكُّوا أنها تعرفه، فبادروها: وما يدريك أنهم له ناصحون؟! فتداركت وأجابت بسرعة وذكاء: إنما أردت أنهم ناصحون للملك. فقالوا لها: من هم؟ قالت: أمي، قالوا: وهل لأمك ابن؟ قالت: نعم هارون وُلد في سنة لا يُقتل فيها الولدان، قالوا: صدقت فَأْتِ بِهَا، فانطلقت إلى أمها فأخبرتها، قال ابن عباس: لما قالت ذلك قالوا لها: ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه؟ فقالت: رغبة في سرور الملك ورجاء منفعته.

فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذته أمه، فلما وضعته في حجرها أخذ ثديها يرضع، وعندئذ طلب منها فرعون أن تتكفل بالطفل وأعطاها رزقًا على ذلك، فرجعت بوليدها إلى بيتها والسعادة تغمر جوانب قلبها هي وابنتها، فقد كافأها الله تعالى على إيمانها وصبرها وأتمت الأم رضاع ابنها موسى، ثم أرسلته إلى القصر الفرعوني.

فقبلوا منها هذا النصح بعد أن استوثقوا من صدقها وأيقنوا أنها لا تعرف الوليد وليس لها به صلة، فدلتهم على أمه ودلتهم على عنوانها، فأرسلوا في طلبها وهم لايشعرون بأنها أمه، وقدموا لها الوليد لترضعه.

تناول موسى الصغير ثديها ورضع منه بسهولة ويسر، ففرحوا بذلك فرحا شديدا. وقالت إمرأة فرعون لها اسكني معنا في القصر لترضعي هذا الوليد الوضيء؛ فأعتذرت بأنها لا تستطيع أن تعيش معهم في هذا القصر لأن لها زوجا وأبناء وطلبت الأم أن تستبقي الوليد في بيتها لترضعه، فأبقوه معها وأغدقوا عليها العطاء.

أخت موسى هنا هي نموذج للابنة البارة ومثال الأخت الحنون التي تساهم في سعادة أسرتها وتبذل من أجل هذه الأسرة كل ما استطاعت من جهد وعزيمة. فسلام على أم موسى التي ربت هذه الفتاة وعلى أخت موسى الناصحة الحنون وعلى كليم الله موسى أفضل السلام.

الحبيبة " صفورا بنت شعيب زوجة موسى عليه السلام "

هي الحافظة المباركة صفورا . "صفورة" بنت نبي الله شعيب عليه السلام، كانت تقوم على خدمة أبيها هي وأختها "ليا"، ولقد قص الله عز وجل لنا من أخبارهما، في قوله تعالى: "ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تزودان"، يقول ابن مسعود ﷺ: "أفرس الناس ثلاثة، أبو بكر حين تفرس في عمر فاستخلفه. والتي قالت: استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين، والعزيز حين قال لامرأته: أكرمي مثواه".

كان موسى عليه السلام حينما بلغ أشده قوي البدن جلدًا وقد أتاه الله عز وجل حكمًا وعلمًا وفقهه في الدين ودين آبائه، فكانت له من بني إسرائيل شيعة يسمعون منه ويطيعونه ويجتمعون إليه، ولم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم ولا سخرة، وكان موسى عليه السلام بهذه المنزلة الكبيرة حتى أنه كان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل ما يلبس، وكان يدعى ابن فرعون، ثم إن فرعون ركب مركبًا وليس عنده موسى عليه السلام، فلما جاء موسى قيل له: إن فرعون قد ركب فركب في أثره وأدركه المقيل بأرض يقال لها "منف"، فدخلها وقد غلقت أسواقها وليس في طرقاتها أحد، فوجد فيها رجلين يقتتلان، هذا من شيعته "بني

إسرائيل" وهذا من عدوه، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه وندم موسى عليه السلام على ما كان من قتله النفس التي قتلها، وتاب إلى الله وسأله الغفران من ذلك، فعفا الله عن ذنبه ولم يعاقبه به. قال تعالى: هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فاغفر له، إنه هو الغفور الرحيم". ولقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: "وعزتي وجلالي لو أن النفس التي قتلت أقرت لي ساعة واحدة أني خالق رازق لأذقتك العذاب".

دخل موسى عليه السلام المدينة على خوف مترقبًا الأخبار عن أمره وأمر القتيل، وماذا يدور في بلاط فرعون بشأنه، فإذا الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس على الفرعوني يقاتله فرعوني آخر، فرآه الإسرائيلي فاستغاثه أيضا، فقال موسى للإسرائيلي الذي استصرخه إنك لغوي مبين، ثم أقبل لينصره فخاف الإسرائيلي ظنا منه أنه إياه يريد، فقال: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس؟ فسمعها القبطي فأفشاها وأعلم بها أهل القتيل. وحينئذ أمر فرعون بقتل موسى عليه السلام، ولما بلغ الأمر رجلا من شيعة موسى في أقصى المدينة أخبره بأن يخرج من هذه المدينة التي خرج منها موسى عليه السلام وهو لا يدري أي طريق يهتدي.

وفي وصف التغرب للضرورة، يقول الشاعر:

ارحل بنفسك من أرض تضام فيها ... ولا تكن من فراق الأهل في حرق

مـن ذل بـين أهاليـه ببلدتـه ... فالاغتـراب لـه مـن أحسـن الخلق

فــالعنبر الخــام روث في مواطنـــه وفي التغـرب محمـول علـى العنــق
والكحل نوع من الأحجار تنظره في أرضـه وهـو مرمى على الطرق
لمـا تغـرب حـاز الفضــل أجمعــه فصـار يحمـل بين الجفن والحــدق

خرج موسى عليه السلام من أرض مصر لا يعرف إلى أين تسوقه قدماه، ولسان حاله يقول: "عسى ربي أن يهديني سواء السبيل"، فهداه الله جل وعلا نحو مدين جنوبي فلسطين التي سار إليها وليس معه طعام، إذ كان يأكل البقل وورق الشجر، فبلغ مدين وقد سقط خف قدمه والتصقت بطنه بعظمه من شدة الجوع والظمأ. قال تعالى: "ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان". وهما ابنتا شعيب النبي عليه السلام، فلما رآهما موسى عليه السلام سألهما: "قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير".

قالت المرأتان لموسى عليه السلام: لا نسقي ماشيتنا حتى يصدر الرعاء مواشيهم، وعلم أن علة الخروج للعمل هي أن أباهم شيخ كبير، وقد منعهما الحياء من مزاحمة الرجال ولم تلجئهما الحاجة إلى محادثة أحد من الرجال ليسقي لهما، بل انتظرتا بعيدًا حتى يذهب الرعاة ليبدؤوا في سقي ماشيتهم، هما ابنتا شعيب عليه السلام، اللتان تربيتا في مدرسة العفة والحياء وعرفتا خشية الله والسعي إلى مرضاته. فلما رأى موسى عليه السلام ما بدا من ضعفهما وغلبة الناس على الماء دونهما ذهب فسقي

لهما، ثم تولى إلى ظل شجرة يستظل بها، ولسان حاله يقول: "رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير". وقد قال عطاء بن السائب: "لما قالها أسمع المرأتين. يقصد الحيية صفورا بنت شعيب وأختها.

لما رجعت الجاريتان إلى أبيهما سريعًا، أنكر منهما تبكيرهما بالعود على خلاف شأنهما كل يوم وسألهما عن سبب ذلك، فقصا عليه ما حدث، فأعاد إحداهما إلى موسى عليه السلام تستدعيه، فأتته تمشي على استحياء "فجاءته إحداهما تمشي على استحياء"، وقد سترت وجهها بثوبها، وقيل: وضعت يدها على وجهها مستترة "قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا" فقام معها، وقال لها: امض فمشت بين يديه فضربتها الريح فنظر إلى عجيزتها، فقال لها موسى: امشِ خلفي ودليني على الطريق إن أخطأت، فلما جاء الشيخ قص عليه ما كان من أمره طمأنه وبشره بالنجاة من القوم الظالمين "فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين" وعندئذ سارعت إحدى الفتاتين ـ وتدعى صفورا، وقيل: صفورة ـ بما لها من فراسة وفطرة سليمة وأشارت إلى أبيها باستئجاره "قالت إحداهما يا أبت استئجره إن خير من استئجرت القوي الأمين". قال: فأحفظته الغيرة أن قال: وما يدريك ما قوته وأمانته؟ قالت: أما قوته، فما رأيت منه حين سقى لنا لم أر رجلًا قط أقوى في ذلك السقي منه. وأما أمانته، فإنه نظر حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه ولم ينظر إلي حتى بلغته رسالتك، ثم قال: امشِ خلفي وانعتي لي الطريق، ولم يفعل ذلك إلا أمين، فسرى عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت". "قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي

هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرًا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين".

وعن سعيد بن جبير أنه قال: "سألني يهودي من أهل الحيرة، أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري، حتى أقدم على حبر العرب فسأله، فقدمت فسألت ابن عباس، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل".

قال ابن زيد: قال ـ يعني أبا الجارية ـ فزوجه ابنته التي أحضرته واسمها صفورا وأمرها أن تأتيه بعصا، وكانت تلك العصا قد استودعها إياه ملك في صورة رجل، فدفعتها إليه، فلما رآها أبوها أمرها بردها والإتيان بغيرها، فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها، فلم تقع بيدها سواها وجعل يرددها وكل ذلك لا يخرج في يدها غيرها، فأخذها موسى ليرعى بها.

أقام موسى عند شعيب، عليهما السلام، يرعى له غنمه عشر سنين، ولما اشتاق إلى أهله قصد زيارتهم ببلاد مصر متخفيًا، فلما سار بأهله في ليلة مظلمة زمن شتاء وبرد، كانت الليلة التي أراد الله عز وجل لموسى فيها كرامته وابتداءه فيها بنبوته وكلامه. وقد أخطأ موسى عليه السلام فيها الطريق حتى صار لا يدري أين يتوجه، وكانت امرأته صفورا حاملًا فأخذها الطلق في هذه الليلة، وكانت ليلة شاتية ذات مطر ورعد وبرق، فأخرج زنده ليقدح نارًا لأهله ليصطلوا ويبيتوا حتى يصبح ويعلم وجه طريقه، وإذ هو كذلك إذ أبصر عن بعد نارًا في جانب الطور "فلما قضى موسى الأجل

وسار بأهله آنس من جانب الطور نارًا قال لأهله امكثوا إني آنست نارًا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون. فلما آتاها نودي يا موسى من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين. وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرًا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين. اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذنك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قومًا فاسقين"، ورأى موسى عليه السلام من الآيات ما رأى ومن خوارق المعجزات والبرهان القاطع ما اطمأن إليه قلبه وثبته على طريق النبوة.

وقد أمر الله تعالى نبيه بالذهاب إلى مصر والدعوة إلى دينه في بلاد عدوه التي خرج منها فرارًا من الموت، حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي، فدخل مصر وزوجته صفورا بنت شعيب إلى جواره تشد من أزره وتعاونه على النهوض بأمر الدعوة وإنجاز ما أوكل الله له من مهام، وقد عاصرت ﵂ مكابدة زوجها عناد فرعون وملأه وقامت بدورها كزوجة

ورفيقة مؤمنة بالله ورسوله خير قيام تثبته وتؤازره حتى كتب لهما النصر على عدو الله وأغرق فرعون وجنوده. فلما خرج موسى عليه السلام لميقات ربه وبينما كان وقومه يعانون التيه، توفيت ﵂ حافظة غير مضيعة، ضاربة أروع الأمثال في الأدب الرباني والحياء الذي يزيد صاحبته وقارًا ويقربها إلى الفلاح في الدنيا والآخرة.

لقد كانت الحيية صفورا بنت شعيب نعم المرأة المتمسكة بالخلق القويم والتي لم يمنعها خلقها من إظهار فطنتها في اختيار شريك حياتها، ونعم الزوجة والرفيقة تعين زوجها على تحمل التبعات وتخفف عنه الأحمال وتقيل من أمامه العثرات، حتى إذا ما لاقت ربها لاقته بقلب مطمئن ونفس طاهرة وقلب عامر بالطهر والعفاف.

الشهيدة " آسية بنت مزاحم "

هي آسية بنت مزاحم، وكانت تنادى في عصرها "ايست نفرت"، وقيل: هي امرأة أحد الرعامسة الذين تولوا حكم مصر. كعب الأحبار: حملت امرأة مزاحم بآسية، فرأى مزاحم في منامه كأن شجرة خضراء خرجت من ظهره، وإذا بغراب قد انقض عليها وقال أنا صاحب هذه الشجرة فانتبه مزاحم، وقص ذلك على بعض صلحاء المعبرين، فقال: ترزق جارية حسناء صديقة وتكون عند رجل كافر وترزق الشهادة، فلما ولدت آسية وصار لها من العمر عشرون سنة، وإذا هي بطائر مثل الحمامة وفي فمه درة فرمى بها في حجر آسية، وقال: يا آسية خذي هذه الخرزة، فإذا اخضرت فهو أوان تزويجك وإذا احمرت فهو وقت الشهادة ثم طار الطائر، فأخذت الخرزة وربطتها على عضدها وأخذت في العبادة واشتهر أمرها بالخيرات، فوصفت لفرعون فأحب أن يتزوجها فخطبها من أبيها، فاغتم أبوها لذلك وقال إن ابنتي صغيرة فكذبه فرعون، فقال مزاحم: اجعل لها مهرًا فأبى فرعون فتلطفوا بفرعون إلى أن أرسل إليها خلعة ومهرًا، فأبت فتلطفوا بها لأجل مداراة فرعون، وقالوا لها: أنت على دينك وهو على دينه، وكان قد أمهرها عشرة آلاف أوقية من الذهب ومثلها من الفضة وبنى لها قبة عظيمة وجعل لها جواري كثيرة وأمر بذبح البقر والغنم، فلما صارت عند فرعون دخل عليها وهم بها فلم يقدر على ذلك، وكان هذا حاله معها فرضي بالنظر منها فقط.

عاشت آسية في أعظم القصور وأفخمها، إذ كان قصرها مليئًا بالجواري والعبيد والخدم، أي أنها كانت تعيش حياة مترفة منعمة؛ ذلك لكونها زوجة للفرعون الذي طغى واستكبر في زمانه وادعى الألوهية وأمر شعبه بأن يعبدوه ويقدسوه وأن ينادوه بالفرعون الإله. وكان شأن فرعون قبل ولادة موسى عليه السلام أنه رأى في منامه كأن نارًا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل وخربت مصر، فدعا السحرة والحزاة والكهنة فسألهم عن رؤياه، فقالوا: يخرج من هذا البلد ـ يعنون بيت المقدس الذي جاء بنو إسرائيل منه ـ رجل يكون على وجهه خراب مصر ويسلبك ملكك ويغلبك على سلطانك ويبدل دينك، فأمر أن لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح ويترك الجواري.

عاشت آسية في قصر الطغيان غير أن الإيمان قد أضاء فؤادها ونور بصيرتها، فكان عامل التحول داخل قصرها ووسط عرين زوجها، لينقذها الله من الكفر، كان التحول في قدوم التابوت بما يحمله من سكينة في القلب وفرحة لا تعادلها فرحة "قرت عينٍ لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا".

وقد جرى ما كان من أمر فرعون الذي نزل على رأيها كارهًا أن يستبقي طفل بني إسرائيل يشب في حضن امرأته وأمام عينه، وكانت إرادة

الله هي الغالبة، ليكون نبي الله موسى عليه السلام ربيبًا للشهيدة المؤمنة، وولدًا لها يعوضها عن عدم إنجابها للولد.

وقد جاء ذكر الشهيدة آسية بنت مزاحم ﵂ في قصة موسى عليه السلام، حينما أوحى الله تعالى إلى أمه أن تلقيه في التابوت، ثم تلقي بهذا التابوت في اليم، ليلقيه اليم بالساحل فيرسو أمام قصر الفرعون ويأخذه الجواري ويدخلن القصر، حتى إذا ما رأت امرأة فرعون ذلك التابوت، ألقى الله في قلبها حبه فأحبته حبًّا شديدًا، فيمكن الله تعالى لموسى عليه السلام بذلك الحب أن يعيش ويربى في بيت عدوه فرعون مصر.

تعهدت آسية الوليد وأشفقت عليه، فأرسلت إلى من حولها من كل أنثى لها لبن لتختار له ظئرًا، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل ثديها، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت وأحزنها ذلك، فأمرت به فخرج إلى السوق، مجمع الناس ترجو أن تصيب له ظئرًا يأخذ منها، فلم يقبل من أحد، وأصبحت أم موسى فقالت لأخته: قصيه واطلبيه هل تسمعين له ذكرًا! أحي ابني أم قد أكلته دواب البحر وحيتانه؟ فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون، فقالت من الفرح حين أعياهم الظئورات ـ "المرضعات"، "هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون".

رضي الوليد أن يرضع من صدر أمه، فانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئرًا، فأرسلت إليها فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثي عندي ترضعين ابني هذا، فإني لم أحب حبه شيئًا قط.

كانت آسية ذات فطرة سليمة وقلب رحيم وعقل واعٍ، إذ استنكرت كل أفعال وأعمال زوجها وما قام به ضد بني إسرائيل من استعباد وتفريق وقتل وتشريد. كان الصراع الحتمي بين الحق والباطل يدب في قلبها، ولكن تبعيتها لزوجها حالت دون ظهوره، حتى إذا جاء موسى عليه السلام ليطفئ الآلام والظلمة التي كابدتها في عيشها مع فرعون؛ فهي امرأة لا تلد، فلما استوهبته من فرعون ووهبه لها، صار قرة عين لها وحبيبًا تستغني به عن كل حبيب في الدنيا، ولا تستطيع كتمان حبها له، "قرت عينٍ لي". لقد حمت محبتها الصغير بعدما اقتحم هذا الصغير قلبها، ليجد قلبًا رقيقًا شفافًا عامرًا بالعطاء والقدرة على التضحية بغير حدود.

جاء الرضيع إلى قصر فرعون الموحش فأنس الوحشة التي وجدتها آسية داخل قصرها، واتخذته ابنًا لها، حتى دعي ابن فرعون، فملأ حياتها وقلبها وكانت مشغولة به وتعهدته بحسن التنشئة حتى كبر وركب مركب فرعون ولبس ما يلبس.

لما بلغ موسى عليه السلام أشده، كان ما كان من أمره بشأن قتله القبطي وأمر فرعون بقتله ورحيله إلى مدين فرارًا من بطش فرعون وجنوده،

ثم عودته إلى مصر حاملًا رسالة التوحيد، حيث كانت آسية من أحبته وأشفقت عليه صغيرًا واتخذته ولدًا. من أوائل المصدقين والمؤمنين بدعوته، وإن منعها عيشها في قصر فرعون من إظهار إيمانها بنبي الله ورسالته. قال تعالى: "فلما جاءهم موسى بآيتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين. وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون. وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحًا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين. واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون.فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين. وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون. وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين".

جاء موسى عليه السلام وأخيه هارون إلى فرعون وملأه، وعرضا ما آتاهما الله من المعجزات الباهرات والدلائل القاهرة التي تؤكد صدقهما فيما أخبرا به عن الله عز وجل من توحيد واتباع أوامره، فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوا وأيقنوا أنه من عند الله، ما كان جوابهم إلا أن جحدوا آيات ربهم وبلغ العناد والطغيان بهم قوته، فقالوا: "ما هذا إلا سحر مفترى".

جاء النور من تحت عباءة فرعون فكان أن آمن من إله "خربيل" النجار الذي صنع التابوت لأم موسى عليه السلام والذي كتم إيمانه وكان

أن آمنت ماشطة ابنة فرعون، فجاء بها وبأبنائها عندما كشف أمرها وألقاهم في التنور جزاءً لإيمانها فلاقت ربها فرحة مستبشرة، بينما كانت آسية مؤمنة تكتم إيمانها ولا يعرف أحد بأمرها داخل القصر، فلما قتلت الماشطة رأت آسية الملائكة تعرج بروحها، فقوي إيمانها وازدادت يقينًا وتصديقًا لموسى عليه السلام، وفيما هي كذلك إذ دخل عليها فرعون فأخبرها خبر الماشطة، فقالت آسية: الويل لك، ما أجرأك على الله، فقال لها: لعلك اعتراك الجنون الذي اعترى الماشطة؟ فقالت: ما بي جنون ولكني آمنت بالله تعالى ربي وربك ورب العالمين، فصاح فرعون، فاجتمع عليه وزراؤه وحجابه فقال: انظروا إلى فعل موسى وهارون كيف فعل بنا وبقومنا وبأهلنا وأفسدهم علينا بسحره، ولم أبال بسحره، ولكن صعب علي حال آسية لكرامتها عندي ولا أدري كيف وصل إليها سحر موسى؟ وسألها فرعون أن ترجع إلى أمها ليذهب ما بها من الجنون فأبت، فجعلوا يتلطفون بها.

ودعا فرعون أمها وقال لها: إن ابنتك قد أصابها ما أصاب الماشطة، فأقسم لتذوقن الموت أو لتكفرن بإله موسى، فخلت بها أمها وراودتها على موافقة فرعون فأبت، وقالت: أما أن أكفر بالله فلا والله، فخرج فرعون وسأل الناس عن رأيهم في مولاهم وملكتهم آسية بنت مزاحم، فأثنوا عليها كثيرا وقالوا: لا مثيل لها في هذا العالم الواسع، وما إن أخبرهم بأنها غيرت دينها واتبعت دين موسى عليه السلام حتى طلبوا منه أن يقتلها، فأمر فرعون حتى مدت بين أربعة أوتاد وعذبت وأخذت السياط تنهال على جسدها وهي صابرة محتسبة على ما تجد من ألم شديد، ثم أمر بوضع رحى

على صدرها وأن تلقى عليها صخرة عظيمة، فلما عانيت الموت دعت ربها محتسبة أن ينجيها من فرعون وعمله قال: "رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين".

اختارت ﵂ جوار ربها فاستجاب الله لدعائها وكشف عن بصيرتها فرأت الملائكة وما أعد لها من الكرامة، فضحكت، فقال فرعون: انظروا إلى الجنون الذي بها.. أتضحك وهي في العذاب؟ ففاضت روحها وارتفعت إلى بارئها تظللها الملائكة بأجنحتها، لترى ما أعد الله لها في الجنة؛ فقد آمنت بربها وتحملت من أجل إيمانها كل أنواع العذاب ولحقت بموكب الشهداء فاستحقت أن تكون من خير نساء العالمين وخير نساء الجنة الخالدات. فقال تعالى: "وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين". قال قتادة: "كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه. فكان دعاؤها رطبًا: "ونجني من فرعون وعمله" أي: نجني من عذاب فرعون ومن أن أعمل عمله، وذلك كفره بالله".

ومن فضائل الشهيدة المحتسبة ﵂ قول الرسول ﷺ: "أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت مُحَّد وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومريم ابنة عمران".

وقال ﷺ: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمُل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام".

قال الحافظ بن حجر: "من فضائل آسية امرأة فرعون: اختارت القتل على الملك والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه". وقال ابن كثير: "روي ابن جرير بسنده عن سليمان التيمي: كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها في الجنة". وقال ابن جرير: كانت امرأة فرعون تسأل: من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون. فتقول: آمنت برب موسى وهارون. فأرسل إليها فرعون فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة فمضت على قولها وانتزعت روحها".

من كان يصدق بأن الملكة التي كانت تعيش في أجمل وأبهى القصور بين الخدم والعبيد تتنازل عن ذلك كله وتركته من أجل الدفاع عن عقيدة التوحيد!! لقد فشلت كل الإغراءات والمساومات وآلة التعذيب عن ثنيها وإعادتها إلى الكفر، فهي نموذج للمرأة الربانية المؤمنة المصدقة القانتة لله يضرب بها الله مثلًا للمؤمنات في كل جيل؛ ليعلمن أن من ذاق حلاوة الإيمان لا يرجع عنه أبدًا، ولله دره القائل:

والصبر مثل أسنه مر مذاقته   لكن عواقبه أحلى من العسل

رضي الله عن آسية بنت مزاحم ضربت لنا أروع الأمثلة في الصبر فكانت عاقبتها كما وعدها ربها بالثبات على الحق والنعيم الأبدي في الجنة، ولنا أن نتأمل في قصة الشهيدة لنرى كيف جعل الله هذه المرأة الصالحة مثلًا حيًّا ينطق إلى قيام الساعة وكيف جعلها رمزًا وعلمًا ظاهرًا لكل من أراد أن يهتدي ويسلك سبلها ويستن بسنن السابقين، فما أعقلها من امرأة حين طلبت جوار ربها الكريم وخرجت عن طاعة زوجها الكافر اللئيم فرعون زمانه ورفضت العيش في قصره ومع خدمه وحشمه وتركت رفاهية الملوك وعلت بإيمانها على قصوره وطلبت دارًا هي أبقى متاعًا وحسنًا وجمالًا في جوار ربها فكملُت وكمُل إيمانها وأصبحت قدوة وأسوة لكل مؤمن ومؤمنة إلى قيام الساعة.

المستعصمة "ماشطة ابنة فرعون"

لم يرد اسمها في كتب السير ولم يحفظ التاريخ لها لقبًا، غير أن ثباتها على الحق والإيمان توجها على نساء العالمين، فهي المرأة الصالحة التي كانت تعيش هي وزوجها في ظل فرعون وجنوده وكان زوجها مقربًا منه بينما تعمل هي مربية لبناته، فلما علما بأمر موسى عليه السلام ورسالته آمنوا به وبما نقل عن ربه وحسن إيمانهم وظلا على إيمانهما بعيدًا عن التصريح به خوفًا من فرعون وبطشه غير أن أحدًا وشى بزوجها فكان جزاؤه القتل وبقيت هي تعمل في قصر فرعون كاتمة إيمانها حتى تستطيع متابعة الإنفاق على أولادها الخمسة وتنشئتهم على الإيمان بالله والتضحية في سبيل دينه.

استعصمت مربية بنات فرعون بدينها، وبينما كانت تمشط إحدى بناته يومًا سقط المشط من يدها، فقالت: بسم الله. فقالت ابنة فرعون: الله.. أبي؟، فصاحت الماشطة بابنة فرعون: كلا.. بل الله ربي وربك ورب أبيك، فتعجبت الابنة أن يعبد غير أبيها وأخبرت أباها بذلك، فتعجب فرعون أن يوجد في قصره من يعبد غيره، ودعا بها وقال لها: من ربك؟ قال: ربي وربك الله فأمرها بالرجوع عن ديناه وحبسها وضربها، فلم ترجع عن دينها فأمر بقدر من النحاس فلمئت بالزيت ثم أحمى حتى غلا وأوقفها أمام القدر، فلما رأت العذاب أيقنت أنما هي نفس واحدة تخرج فإن دفعتها في سبيل الله كان ذلك خير من الدنيا وما فيها وآثرت أن تلقى ربها

تعالى، فعلم فرعون أن أحب الناس إليها أولادها الخمسة ـ "فلذة كبدها"، فهي تكدح من أجلهم وتسهر على راحتهم فأراد أن يزيد في عذابها وأحضر أطفالها الخمسة تدور أعينهم وهم لا يدرون إلى أين المصير وإلى أين يساقون، فلما رأوا ما أحضر لهم تعلقوا بأمهم يبكون ويصرخون، فنكبت عليهم تقبلهم وهي تبكي.. ولم ترفع عينيها إلى فرعون لتطلب منه الصفح أو العفو أو الرحمة، إذ أنها علمت أنها على الحق فتثبت وأنها إلى النعيم الحقيقي ماضية فأخذت أصغرهم وضمته إلى صدرها وألقمته ثديها، فلما رأى فرعون هذا المنظر أمر بأكبرهم سنًّا فجره الجنود ودفعوه إلى الزيت المغلي والغلام يصيح ويصرخ وعينيه على أمه يستغيث ويسترحم الجنود ويتوسل إليهم وإلى فرعون، ولكن دون جدوى.

الأم تبكي على صغيرها وهي تضم الآخرين إليها وتودع فلذة كبدها: أودعتك الله.. وما هي إلا لحظات حتى ألقي الابن في الزيت فاختفى منه وذاب لحمه عن جسمه وبرزت عظامه والأم تبكي وهي تنظر إلى العظام وتتعالى ضحكات فرعون وجنوده.. ونظر إليها فرعون وأمرها بالرجوع عن دينها والكفر بالله، فأبت عليه ذلك فغضب فرعون وأمر بولدها الثاني فسحب من عند أمه وهو يبكي ويستغيث وكأن لسان حاله يقول: أماه ما الخطب. ماذا جنينا حتى يفعل بنا هذا؟ ولكن ما هي إلا لحظات حتى ألقي في الزيت وهي تنظر إليه، حتى طفحت عظامه بيضاء والأم ثابتة على دينها مؤمنة بلقاء ربها وبحسن العاقبة. ثم أمر فرعون بالولد الثالث فسحب وقرب إلى القدر المغلي ثم حُمل وغيب في الزيت والأم ثابتة على دينها فأمر فرعون أن يلقى الرابع في الزيت.. أسرع الجنود إليه وكان صغيرا قد تعلق

بأمه يمسك بثوبها يصرخ ويستغيث، فلما جذبه الجنود انطرح على قدمي أمه ودموعه تجري على قدميها وقلبها معلق بالسماء ولسان حالها يلهج "إنا لله وإنا إليه راجعون".

حاولت أن تحمله مع أخيه، حاولت أن تودعه وتقبله قبل أن يفارقها في الدنيا، فحاولوا بينها وبينه وحملوه من يديه الصغيرتين وهو يبكي ويستغيث.. ويلكم.. أين قلوبكم؟ أهي كالحجارة أم أشد قسوة؟.. ويتوسل الصغير بكلمات غير مفهومة وهم لا يرحمونه.. وما هي إلا لحظات حتى غرق في الزيت المغلي ..وغاب الجسد وانقطع الصوت "وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد"، كانت تبكي وتتقطع لفراقه، ولكنها جاهدت نفسها أن تتجلد وتتماسك فالتفتوا إليها وتدافعوا عليها.. الطفل الرضيع.. الطفل الرضيع.. وانتزعوا الخامس من بين يديها وكان قد التقم ثديها، فلما انتزع منها صرخ الصغير ولا يدري إلى أي مصير يأخذوه، وبكت المسكينة وصرخت وعلا صراخها، فلما رأى الله تعالى ذلها وانكسارها وفجيعتها، كانت الآية.. أنطق صغيرها: "الصبي في مهده"، وقال لها: يا أماه اصبري فإنكِ على الحق، ثم انقطع صوته وغيب في القدر مع إخوته والأم الثكلى تنظر إليهم.. آه يا من فرشت حجري لكم سريرًا.. وصدري كان لكم وعاءً وفيرًا.. وطال سهري عليكم حنينًا.. وقد قتلتم غيلًا.. وخلفتموني وراءكم في الدنيا وحيدة.

تركوها وحيدة تعتصر ألم الفراق بعد أن كان البيت يضج بهم ضحكًا وسرورًا، ولكنها سرعان ما تذكرت أن ما عند الله خير وأبقى وأن متاع

الدنيا إلى زوال، وقد أشار فرعون إلى جنوده فأقبلوا إليها كالكلاب الضارية ودفعوها إلى القدر، فلما حملوها ليقذفوها في الزيت نظرت إلى عظام أولادها، فتذكرت اجتماعهم معها في الحياة، والتفت إلى فرعون وقالت: لي إليك حاجة، فصاح بها متاملًا وقد دب في قلبه الفرح.. ها قد عادت وانتصر ديني على دين موسى، فقال: ما حاجتك؟ فقالت: أن تجمع عظامي وعظام أولادي فتدفنها في قبر واحد، فقال لها: لك ذلك.. ثم أغمضت عينيها وألقيت في القدر واحترق جسدها.

رحلت المستعصية لتلحق بصغارها، فقد اشتاقت إليهم كما كانت في الدنيا لا تغيب عنهم..كانت تستطيع أن تحول بينهم وبين العذاب بكلمة كفر تسمعها لفرعون، لكن هذه المؤمنة استطاعت أن تضرب لنا مثلًا خالدًا في التاريخ هو الثبات على الحق والاستعصام بحصن الإيمان الذي لا يزول. ما أعظم ثباتها!

مضت هذه المرأة الصالحة المؤمنة إلى جوار ربها.. إلى جنة الخلد وملك لا يبلى. قال رسول الله ﷺ، فيما رواه البيهقي: "لما أسرى بي مرت بي رائحة طيبة فقلت: ما هذه الرائحة يا جبريل؟ قال: هذه ماشطة فرعون وأولادها". وروي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "لما كانت الليلة التي أسري بي فيها، أتت علي رائحة طيبة، فقلت: جبريل، ما هذه الرائحة الطيبة؟ قال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها".

لا أجد من الكلمات ما أصف به ثبات الماشطة على الدين رغم أنها لم تعلم عنه إلا القليل، قتل زوجها ثم أبناءها، الولد تلو الولد، حتى إذا جاء دورها لم تتراجع بل أقبلت في ثبات ويقين لا يتزعزع، لعلمها أن الله ناصر دعوته ومهلك عدوه ولو كره المجرمون. لقد طلبت الآخرة وسعت إلى جوار ربها حتى تنال رضاه، فكان حسن الخاتمة، سلام عليها بما صبرت ونعم عقبى الدار، وطوبى لها ثم طوبى لها جنات وأنهار. قال تعالى: "ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم"، وقال تعالى: "وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور".

الحكيمة "بلقيس ملكة سبأ"

هناك اختلاف كبير بين الراجح بشأن تحديد اسم ونسب هذه الملكة الحميرية اليمنية، التي عاشت بأرض مأرب، فقد قيل هي بلقمة ابنة هادد، وقيل هي بلقيس بنت السيرح أي الهدهاد من بني يعفر، وقيل بلقيس بنت شراحيل بن ذي جدن بن السيرح بن الحرث بن قيس بن صيفي بن سبا بن يحشب بن يعرب بن قحطان، وقيل: بلقيس بنت ذي شرح. وقد كان أبوها من أكابر الملوك، وقد ورثت الملك بولاية منه، إلا أن أشراف القوم وعليتهم استنكروا توليها العرش عليهم وقابلوا هذا الأمر بالازدراء والاستياء، فدبت الفوضى في أرجاء المملكة؛ مما أثار الطمع في قلوب الطامعين في الاستيلاء على مملكة سبأ، ومنهم الملك "عمرو بن أبرهة" الملقب بذي الأذعار والمعروف بسوء الخلق، فأعد ذو الأذعار جنده وجهزهم للاستيلاء على مملكة سبأ، إلا أن بلقيس علمت بذلك فخشيت على نفسها، وخرجت متخفية في ثياب أعرابي ولاذت بالفرار.

لما عمَّ الفساد أرجاء مملكتها، قررت بلقيس التخلص من ذي الأذعار واستطاعت أن تستخدم دهاءها في القضاء عليه، فأحاطت به ولم يستطع أن يفلت من تدبيرها، وبذلك جعلت الأمر إليها، فأشارت إلى أشراف القوم وعليتهم بمن يولى على مملكة سبأ، فقالوا: الأمرإليك فاستقر الأمر إليها واستعادت سلطانها ونفوذها.

وقد كانت بلقيس وقومها يعبدون الأجرام السماوية والشمس من دون الله ويتقربون إليها بالقرابين ويسجدون لها من دون الله، وهذا ما قصه الهدهد لسليمان عليه السلام: "فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون".

قدم الخبر إلى نبي الله سليمان عليه السلام، إذ كان سليمان عليه السلام يحب الجهاد في سبيل الله، فلما دله الهدهد على ملك بموضع من الأرض هو لغيره ولقوم كفار يعبدون غير الله وتملكهم امرأة، كان حقًّا عذرًا للهدهد وصحة له في مغيبه عن سليمان، فأجاب سليمان عليه السلام الهدهد لما فرغ: "قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين".

أمر سليمان عليه السلام الهدهد أن يذهب برسالة منه إلى المملكة التي زعم وجودها وإلى أهلها الذين زعم أنهم يعبدون الشمس من دون الله "اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون".

كانت لبلقيس كوة في بيتها مستقبلة الشمس، ساعة تطلع الشمس تطلع فيها فتسجد لها، فجاء الهدهد معه كتاب سليمان حتى وقع فيها فسدها، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى الهدهد الكتاب إليها من تحت جناحه وطار غير بعيد حتى تنظر الشمس، فسمع الهدهد مراجعة بلقيس أهل مملكتها وقولها لهم: "قالت يا أيها الملأ إني إلقي إلي كتاب كريم.

إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين".

كانت بلقيس ملكة سبأ صاحبة علم وحكمة وبصيرة نافذة وخبرة وحسن سياسة، وعلى الرغم مما عرف عنها من رجاحة عقلها إلا أنها لم تقطع أمرًا بشأن هذا الكتاب، بل أشارت إلى الملأ عندها وأولي مشورتها وهم ثلاثمائة واثني عشر رجلًا كل رجل منهم على عشرة آلاف، قالت: أشيروا عليَّ في أمري الذي قد حضرني من أمر صاحب هذا الكتاب الذي ألقي إليَّ، فما كنت قاضية أمرًا في ذلك حتى تشهدون .. فأجاب الملأ من قوم بلقيس إذ شاورتهم في أمرها وأمر سليمان: نحن ذو القوة على القتال والبأس الشديد في الحرب والأمر أيتها الملكة إليك في القتال وفي تركه فانظري من الرأي ما ترين ومُرينا نأتمر بأمرك.

ارتأت بلقيس بما لها من الحكمة والخبرة وحسن السياسة رأيًّا مخالفًا لرأيهم فهي تعلم بخبرتها وتجاربها في الحياة أن "الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون"، لذا كان رأيها حكيمًا وسديدًا، إذ أن هذا الملك لو قد غلب على هذه الملكة لم يخلص الأمر من بينهم إلا إليها، ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا عليها. قالت: "وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون". وقد ذكر أنها قالت: إني مرسلة إلى سليمان لتختبره بذلك وتعرفه به، أملك هو أم نبي؟ وقالت: إن يكن نبيًّا لم يقبل الهدية ولم يرضيه منا إلا أن نتبعه على دينه، وإن يكن ملكًا قبل الهدية ورجع عنا.

قال ابن عباس: وبعثت إليه بوصائف ووصفاء وألبستهم لباسًا واحدًا حتى لا يعرف ذكر من أنثى، فقالت: إن زيل بينهم حتى لا يعرف الذكر من الأنثى ثم رد الهدية فإنه نبي وينبغي لنا أن نترك ملكنا ونتبع دينه ونلحق به. وقد أشار بعض أهل العلم عن وهب بن منبه، قال: كانت بلقيس امرأة لبيبة أدبية في بيت ملك لم تملك إلا لبقايا من مضى من أهلها، أنه قد سيست وساست حتى أحكمها ذلك وكان دينها ودين قومها ـ فيما ذكر ـ الزندقية، فلما قرأت الكتاب سمعت كتاباً ليس من كتب الملوك التي كانت قبلها فبعثت إلى المقاولة من أهل اليمن، فقالت لهم: "قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين. قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرًا حتى تشهدون. قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين. قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون. وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون"، ثم قالت: إنه قد جاءني كتاب لم يأتني مثله من ملك من الملوك قبله، فإن يكن الرجل نبيًّا مرسلًا فلا طاقة لنا به ولا قوة، وإن يكن الرجل ملكًا يكاثر فليس بأعز منا ولا أشد.. فهيأت هدايا مما يهدى للملوك مما يضنون به، فقالت: إن يكن ملكًا فسيقبل الهدية ويرغب في المال، وإن يكن نبيًّا فليس له في الدنيا حاجة وليس إياها يريد، إنما يريد أن ندخل معه في دينه ونتبعه على أمره.

لما جاء الرسول سليمان عليه السلام من قبل المرأة بالهدايا، قال سليمان: أتمدونني بمال فما أتاني الله من المال والدنيا أكثر مما أعطاكم منها

وأفضل، ما أفرح بهديتكم التي أهديتم إليَّ بل أنتم تفرحون بالهدية التي تهدى إليكم لأنكم آل مفاخر بالدنيا ومكاثرة بها وليست الدنيا وأموالها من حاجتي؛ لأن الله تعالى قد مكنني منها وملكني فيها ما لم يملك أحدًا.. حتى قال "ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون".

ولما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان عليه السلام، قالت: قد والله عرفت ما هذا بملك وما لنا به طاقة وما نصنع بمكاثرته شيئًا، وعندها أيقنت بلقيس بقوة سليمان وعظمة سلطانه وأنه لا ريب نبي من عند الله عز وجل، فجمعت حرسها وجنودها واتجهت إلى الشام حيث سليمان عليه السلام وبعثت إليه: إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر أمرك وما تدعو إليه من دينك، ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ، فجعل في سبعة أبيات بعضها في جوف بعض ثم أقفلت عليه الأبواب، وكانت إنما يخدمها النساء معها ستمائة امرأة يخدمنها، ثم قالت لمن خلفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك وسرير ملكي فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ولا يرينه أحد حتى آتيك، ثم شخصت إلى سليمان في اثنى عشر ألف قيل معها من ملوك اليمن، تحت يد كل قيل منهم ألوف كثيرة، فجعل سليمان يبعث الجن فيأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة وبعد تلك الإشارة رجع سليمان عليه السلام إلى دلالة المنطق والعلم ولم ينظر إلى الملك؛ وذلك لأن الملك أصغر من أن يذكر في هذا المجال.. ويؤكد هذا إعلان سليمان في الناس من قبل "وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا

من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين"، فالمنطق هذا علم وعطاء وتسخير واستغلال لسنن الكون المسخر لنا واستغلال لطاقاته العظيمة الموهوبة لنا من الخالق العظيم. حتى إذا دنت جمع من عنده من الإنس والجن ممن تحت يده يستنفرهم ويطرح تلك القضية أمامهم "قال يا أيها الملأ إيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين".

أراد سليمان أن يجعل ذلك حجة عليها في نبوته ويعرفها بذلك قدرة الله وعظيم سلطانه وشأنه. لقد خلفته في بيت في جوف أبيات بعضها في جوف بعض مغلق مقفل عليها، فأخرجه الله من ذلك كله بغير فتح أغلال وأقفال حتى أوصله إلى وليه من خلقه وسلمه إليه، فكان لها في ذلك أعظم حجة على حقيقة ما دعاها إليه سليمان وعلى صدق سليمان فيما أعلمها من نبوته. قفال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك هذا الذي جلست فيه للحكم بين الناس. وذكر أنه كان يقعد إلى انتصاف النهار، فكان رجلًا من أهل العلم بمجلسه اسمه "بليخا"، وقيل: "اصف بن برخيا" أجاب: أنا آتيك به قبل أن يصل إليك من كان منك على مد البصر، فنظر سليمان عليه السلام، فلما قطع كلامه رد سليمان عليه السلام بصره على العرش فرآه مستقرًا عنده، ولم يكن نقل العرش بيد الرجل الصالح ضربًا من ضروب السحر، إذ قد يتيه العقل في كيفية تمكن مخلوق ضعيف من إحضار عرش ملكة سبأ في ذلك العصر من على بعد آلاف الكيلومترات في جزء من الثانية، أي قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه؟. فلا يستطيع أحد أن ينكر قدرة الله تعالى على خلقه الذي خلقه

فسوى، والذي إذا ما أراد أن ينعم عليه وهبه ما لا يستطيع له حصرًا "إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون".

قال ابن عباس، وأكثر المفسرين: إن الذي عنده علم من الكتاب "آصف بن برخيا" وهو من بني إسرائيل وكان صديقًا يحفظ اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دُعي أجاب.

وروي عن عائشة ﵂: أنه دعا يا حي يا قيوم. وقال الزهري: قال: يا إلهنا وإله كل شيء إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت ائتني بعرشها فمثل بين يديه. وقيل دعا فقال: يا إلهنا وإله كل شيء يا ذا الجلال والإكرام، فاستقر العرش بين يدي سليمان عليه السلام الذي شكر الله على هذه النعمة "فلما رءاه مستقرًا أمامه قال هذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم".

وعندما جاءت صاحبة سبأ سليمان أخرج لها عرشها فقال: أهكذا عرشك؟" في إشارة بليغة من سليمان وحكمة "أهكذا" ولم يقل هذا عرشك لئلا يكون ذلك تلقينا لها، فلا يتم الاختيار لعقلها. فنظرت إليه وشبهته به : "كأنه هو" في إشارة تدل على حكمتها وبلاغتها؛ إذ قالت "كأنه هو" ولم تقل "هو هو" خوفًا من التكذيب مع نوع من التغيير ولا خوفًا من التجهيل، وذلك من حكمة ورجاحة عقلها، حيث لم تقطع في المحتمل وغلبت الظن فقالت: "كأنه". لقد كانت بلقيس امرأة معروفة بكمال

عقلها وسعة حكمتها وذكائها، قالت وشبهته به: "كأنه هو" وهي تعلم أنها قد تركته في حصون وعنده جنود تحفظه، فكيف جاء إلى ها هنا؟!

أراد سليمان أن يريها ملكًا هو أعز من ملكها وسلطانًا أعز من سلطانها، فقال للشياطين: ابنوا لي صرحًا تدخل علي فيه بلقيس، فبنوا له حرمًا من قوارير خضر، وجعلوا له طوابيق من قوارير بيض فبقي كأنه الماء وجعلوا تحت الطوابيق صور دواب البحر من السمك وقعد سليمان ثم أمر فأدخلت بلقيس عليه. يقول الطبري: "ذكر أن سليمان لما أقبلت صاحبة سبأ تريده، أمر الشياطين فبنوا له صرحًا وهو كهيئة السطح من قوارير، وأجرى من تحتها الماء ليختبر عقلها بذلك وفهمها على نحو الذي كانت تفعل هي من توجيهها إليه الوصائف ليميز الذكور منهم والإناث معاتبة بذلك كذلك".

ولما أرادت أن تدخله ورأت صور السمك ودواب الماء حسبته لجة ماء فكسفت عن ساقيها لتدخل "قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين". علمت بلقيس وأيقنت بنبوته وأنه رسول من عند الله وقد سخر الله له ما سخر، فأسفت على ما فاتها من إيمان وعبادتها للشمس من دون الله وأقرت بلقيس: أنها ظلمت نفسها في عبادتها للشمس وسجودها لها من دون الله وانقادت مع سليمان فدعت لله بالتوحيد مفردة له بالألوهية والربوبية دون كل ما سواه. وأسلمت لله وحسن إسلامها وتزوجها سليمان وأحبها حبًّا شديدًا وردها إلى ملكها باليمن.

تقول المراجع التاريخية إن هذه الحقبة من الزمن "زمن حكم بلقيس" في مملكة سبأ قد شهدت أيما ازدهار واستقرت البلاد أيما استقرار وتمتع أهل اليمن بالرخاء والحضارة والعمران والمدنية، ووطدت أركان ملكها بالعدل وساست بالحكمة كما قامت بترميم سد مأرب الذي كان قد نال منه الزمن وأهرم بنيانه وضعفت أوصاله، فكانت بلقيس هي أول ملكة اتخذت من سبأ مقرًّا لحكمها.

أقامت بلقيس مع سليمان عليه السلام سبع سنين وعشرًا وتوفيت فدفنها في تدمر، وتعلل المراجع سبب وفاة بلقيس بحزنها الشديد لوفاة ابنها "رحيم بن سليمان". وقد ظهر تابوت بلقيس في عصر الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وعليه كتابات تشير إلى أنها ماتت لإحدى وعشرين سنة خلت من حكم سليمان عليه السلام، وحينما رفع الأمر إلى الخليفة أمر بترك التابوت مكانه وبني عليه الصخر.

رحم الله صاحبة سبأ؛ فما كان لها هذا الشأن العظيم لولا اتصافها برجاحة العقل وسعة الحكمة وغزارة الفهم وحسن التفكير وحزم التدبير الذي أسعفها في الكثير من المواقف الصعبة والمحن الشديدة التي تعرضت لها عندما قوض عرشها إبان دخول ذي الأذعار مملكتها، فلولا حكمتها ما تخلصت من براثنه وطغيانه وجبروته، ولولا حكمتها ما اتبعت سليمان عليه السلام وما أسلمت وجهها لله.

العاقر الصبور" زوجة نبي الله زكريا "

قصةَ امرأة فريدة من نوعها، امرأة مباركة من شجرةٍ مباركة نبتت نباتًا حسنًا طيبًا، وكيف لا؟ وهي زوجة نبيٍّ الله زكريا عليه السلام، وأمُّ نبي؛ يحيى عليه السلام، وخالة نبي عيسى عليه السلام.

اجتمعت عليها هذه الفضائل كلها والخصال الحسنة؛ فقدَّمت لنا امرأة عظيمة ذات قدر جليل عند الله وعند من حولها، اسمها إيشاع بنت عمران زوجة نبيٍّ الله زكريا عليه السلام.

شاء الله أن تُكتبَ عنده عاقرًا، وزوجها شيخ كبير؛ كما جاء في القرآن في قوله تعالى: "لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ" (الشورى: ٤٩، ٥٠).

آمنت امرأة زكريا بقدر الله وصبرت وتحمَّلت فقد النعمة التي جبل عليها البشر ألا وهي حب الأطفال والتي حُرمت منها، لطالما كان يحنُّ قلبها وزوجها إلى طفلٍ يجلب السعادة ويرث من بعدهما، فلم يستسلما، وكانا يظنَّان بالله الظنَّ الحسن وكانا دائمي الدعاء؛ لعل هذا اليوم أن يأتي ويستجيب الله دعاءهما.

ذُكرت قصتها في ثلاث سور: في سورة آل عمران ومريم والأنبياء، وكانت بدايتها في سورة آل عمران عندما دخل سيدنا زكريا على مريم عليها السلام، وهو من تكفَّل برعايتها ووجد عندها رزقًا طيبًا، فسألها: "يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" (آل عمران: ٣٧)؛ هنالك طَمِع سيدنا زكريا فيما عند الله؛ لما رأى بعينه نِعَم الله على مريم، ودعا قائلًا: "رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ" (آل عمران: ٣٨)، وكان العجب أن الإجابة لم تتأخَّر، وجاءت فورًا: "فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ" (آل عمران: ٣٩)؛ فتعجَّب سيدنا زكريا وتساءَلَ كما يفعل أيُّ إنسان مهما كان نبيًّا فهو بشر، وقال: "رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ" (آل عمران: ٤٠)؟! فكانت الإجابة: "قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ" (آل عمران: ٤٠)، وفي سورة مريم كانت الإجابة مفصَّلة: "قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا" (مريم: ٩).

ذكر أنها تدعى "إليصابات" بحسب إنجيل لوقا هي زوجة زكريا وأم يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا). وبحسب التقاليد الكنسيَّة هي أيضًا ابنة خالة مريم العذراء؛ إذ كان للقديسة حنة والدة مريم العذراء شقيقة تدعى ايسميريا وهي والدة إليصابات؛ ووفقًا للتقاليد المسيحية هي شقيقة إليود جد القديس سيرفاتوس.

إليصابات هي الصيغة اليونانية لاسم لفظه في اللغة العبرية (إليشيبا أو اليشبع) أي (الله قسم) ومعناه المكرسة للرب، وهو اسم امرأة تقية من سبط لاوي ومن بيت هارون. واسمها في العبرية هو نفس اسم امرأة هارون (اليشبع). في الإنجليزية هو إليزابيث وعرب الاسم إلى "إلِيَصابات". كما في كتب التاريخ العربي وأصل التاء ثاء، لكن العرب خففوها فجعلوها تاء. وقيل: إيشاع.

يشير البعض من الباحثين أن مريم العذراء من سبط لاوي وذلك استنادًا إلى كون "إليصابات" قريبتها متزوجة من هذا السبط ولا يحق لليهود الزواج من غير سبطهم حسب تشريع سفر العدد، وتعتبر هذه النظرية الرسمية لدى الإسلام وكذلك الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، وتعد إليصابات هي زوجة النبي زكريا وأم النبي يوحنا المعمدان (النبي يحيى) (الذي ولدته بعد أن كانت قد تقدمت بها السن)، وأخت حنة أم مريم عليها السلام بنت عمران، ذكر في "المعالم" في تفسير سورة مريم قوله تعالى: "قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا" (سورة مريم، الآيات ٤). أي قال زكريا: عودتني الإجابة فيما مضى، وقوله تعالى: "وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليًّا" أي: ابنًا، وقوله تعالى: "يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا" (سورة مريم، الآيات ٦). قال الحسن: يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة والحبورة؛ لأن زكريا عليه السلام كان نبيًّا مرسلًا ورأس الأحبار. وقوله تعالى: "يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى..". وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه لم تلد العواقر مثله. وقوله تعالى: "قال رب

اجعل لي آية.." أي دلالة على حمل امرأتي، لأنها عاقر وقد كبرت وأسنت. قال تعالى: "قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا"؛ أي: صحيحًا سليمًا من غير بأس ولا خرس وكان الناس ينتظرون خروجه من وراء المحراب، فخرج عليهم متغيرًا لونه، فأنكروه وقالوا له: ما لك؟ فكتب لهم في الأرض ".. أن سبحوا بكرة وعشيا..". لأنه كان يخرج عليهم بكرة وعشيا، فلما كان وقت حمل امرأته إنشاع ومنع من الكلام خرج إليهم وأمرهم بالصلاة [إشارة]. ولما تم حملها، ولدت يحيى عليه السلام ولما صار له من العمر ثلاث سنين أتاه الله الحكم صبيا، قرأ التوراة وهو صغير وذكر في "تاريخ ابن الوردي": أن إيشاع ولدت يحيى عليه السلام قبل ما ولدت مريم عليها السلام عيسى بستة أشهر، فكان مولد يحيى سنة أربع وثلاثمائة لغلبة الاسكندر، ولهبوط آدم عليه السلام خمسة آلاف وخمسمائة وأربع وثمانين.. قال: "قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا* وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا* يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا". (سورة مريم، الآيات ٤– ٦).

زوجة نبي الله زكريا وأم نبي الله يحيى، عليهما السلام، وأخت حنة بنت فاقوذ زوجة عمران وخالة السيدة العذراء مريم بنت عمران أم عيسى عليه السلام. كانت تقية وصالحة ومن العابدات وصابرة على قضاء الله، عاقرا لا تلد دعت ربها فاستجاب لها بالذرية الصالحة، إنها إيشاع العابدة.

كانت حنة أخت إيشاع زوجة عمران تقية، ومن العابدات أيضا ولا تحمل، وعندما استجاب الله لدعاء عمران وحنة بعد أن لبثت حنة ثلاثين سنة لا ولد لها فحملت، فنذرت أن تهب ولدها لخدمة بيت المقدس، وكانت ترجو أن يكون ذكرًا وحملت ابنتها مريم، التي أصر زكريا عليه السلام زوجِ خالتها إيشاع على أن يكفلها.

وإيشاع الزوجة الصالحة، العابدة مثل زوجها كانت عاقرا لا تلد، فدعت الله أن يستجيب لها مثل أختها حنة ويعطيها وزوجها الولد وصبرت واحتسبت لأنها مؤمنة بأن الله بيده كل شيء. أما زكريا عليه السلام، فكان لديه الحنين للذرية الصالحة. وذات يوم دخل زكريا عليه السلام المحراب على مريم البتول، فوجد عندها رزقًا من رزق الله لم يأتها به ولا وجود له عند الناس في ذلك الوقت، وهذا من إكرام الله لها، وكانت الملائكة تأتي إلى مريم وتخبرها بأن الله اصطفاها، فسألها "قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب"، فقال زكريا في نفسه: إن الله قادر على كل شيء. في ذلك الوقت استيقظ بداخله الأمل في أن يرزقه الله الذرية، رغم أنه قد بلغ مبلغا من العمر وصار شيخا عجوزا ضعف عظمه واشتعل رأسه بالشعر الأبيض وأحس أنه لن يعيش طويلا، تمنى أن يكون له ولد يرث علمه وفقهه وأن يرشد قومه ويدعوهم إلى الله.

قال تعالى «قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء». سورة آل عمران الآية ٤٠.

سأل زكريا ـ عليه السلام ـ خالقه أن يرزقه طفلا يرث النبوة والحكمة والعلم. وكان زكريا خائفا أن يضل القوم من بعده ولم يبعث فيهم نبي، فرحم الله تعالى زكريا واستجاب له. فلم يكد يمر وقت على دعائه لله حتى نادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب «يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا»، «فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين».

فوجئ زكريا بهذه البشرى، وكيف يرزقه الولد الذي لا شبيه له أو مثيل من قبل في هذه السن وزوجته إيشاع لا تلد، ولكن شعر أنه لا بد أن يعرف كيف «قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا» سورة مريم الآية ٨، في ذلك الوقت دُهش زكريا عليه السلام، فقال له الله تعالى «قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تكُ شيئا» (سورة مريم الآية ٩)، وقد أفهمته الملائكة أن هذه مشيئة الله وليس أمام مشيئة الله إلا النفاذ، وكل شيء يريده يأمره بالوجود فيوجد. وقد خلق الله زكريا نفسه من قبل ولم يكن له وجود وكل شيء يخلقه الله تعالى بإرادته: «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون».

وازداد زكريا عليه السلام في الشكر لله والحمد له وسأل ربه أن يجعل له آية أو علامة. قال زكريا: «قال رب اجعل لي آية قال آيتُك ألا تكلم

الناس ثلاث ليال سويا، فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا» (مريم الآيتان ١٠- ١١).

أخبره الله عن طريق الوحي أنه ستجيء عليه ثلاثة أيام لا يستطيع فيها النطق ويجد نفسه غير قادر على الكلام ويكون صحيحا غير معتل، إذا حدث له هذا تيقن زكريا عليه السلام أن امرأته حامل وأن معجزة الله قد تحققت، وعليه في ذلك الوقت أن يتحدث إلى الناس عن طريق الإشارة ويسبح الله كثيرا في الصباح والمساء ويدعو الناس إلى تسبيحه في الصباح الباكر وفي العشاء.

خرج زكريا يومًا على الناس وقلبه مليء بالشكر وأراد أن يكلمهم، فاكتشف أن لسانه لا ينطق، عرف وقتها أن معجزة الله تحققت، فأومأ إلى قومه أن يسبحوا الله في الفجر والعشاء وراح هو يسبح الله في قلبه وصلى لله شكرا على استجابته لدعوته.

فرزقهما الله غلامًا اسمُه يحيى، لم يُسمَّ هذا الاسم لأحدٍ قبله، وهذه بشارة لزكريا وزوجه وجائزة صبرهما: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (مريم الآية: ٧)، لم يكن هذا فقط الميزة الوحيدة في هذا الغلام؛ بل تتابعت النعم وكُتب له أن يكون نبيًّا وأن الله سوف يؤتيه الحُكمَ وهو صبي ويكون من المتقين، برًّا بوالديه والذكر الحسن له في حياته ومماته ويوم يُبعث يوم القيامة: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا* وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا* وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا

عَصِيًّا* وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (سورة مريم الآيات : ١٢ – ١٥).

يقول د. أحمس حسن صبحي، في كتاب «المبعوثون إلى الأرض.. قصص الأنبياء»: وعندما كانت إيشاع زوجة زكريا حاملًا بيحيى، في الوقت ذاته كانت ابنة أختها مريم حاملا بعيسى عليه السلام وولد عيسى بعد ميلاد يحيى بثلاثة أشهر. ونشأ يحيى عليه السلام من أبويه إيشاع وزكريا نشأة على صلاح وتقوى وعلم، وقد آتاه الله الحكم صبيًا وأقبل على معرفة الشريعة وأصولها وأحكامها حتى صار عالما متبحرًا ومرجعًا يرجع الناس إليه في الفتاوى الدينية. وعمل قاضيا يفصل بين الناس في المسائل الفقهية وفي خلافاتهم، فيقضي بينهم بالحق والعدل، ثم وافته النبوة والرسالة قبل أن يبلغ من العمر ثلاثين عاما. أما إيشاع زوجة نبي الله زكريا وأم نبي الله يحيى ـ عليهما السلام ـ الصابرة التقية الصالحة الورعة، فاستجاب الله لدعاء زوجها في أن يهبه ذرية طيبة، كما كانت بشارة الملائكة لهما بيحيى عليه السلام «مصدقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين» سورة آل عمران، أكبر دليل من الله سبحانه وتعالى على أنهما من عباد الله الصالحين".

فسلام على أم يحيى

في العالمين لما حظت به من النعم وكانت هذه المرأة الصابرة المحتسبة جزاؤها من جنس عملها، صابرة، مثابرة على الخير وتدعو الله رهبةً ورغبة وكانت من الخاشعين، عرفت الطريق فسلكت فكانت من الصالحين.

لله درُّها من امرأة خُلِّد ذكرها وتركت لمن بعدها من نساء جنسها بصمةً واضحة وأثرًا باقيا يُحتذى به إلى جميع الأجيال من بعد، فسلام على على جميع المرسلين.

البتول "مريم ابنة عمران"

هي مريم بنت عمران من نسل سليمان بن داوود عليهما السلام، وأمها حنة بنت فاقوذ بن قبيل. قال تعالى: "إن الله اصطفي آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم. إذ قالت امرأت عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم. فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتًا حسنًا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنا لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب".

ذكر مُحَمَّد بن اسحاق وغيره: أن أم مريم كانت لا تحبل فرأت يومًا طائرًا يزق فرخًا له، فاشتهت الولد، فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محررًا، أي حبيسًا في خدمة "الكنيسة" ـ بيت المقدس، وطلبت عصمتها هي وذريتها من الشيطان.. قالوا: فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها فحملت، فوضعت أنثى "مريم عليها السلام".

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه، إلا مريم وابنها". ويقول

أبو هريرة: واقرؤا ما شئتم: (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم). وقال رسول الله ﷺ: "كل مولود من بني آدم يمسه الشيطان بإصبعه، إلا مريم وابنها".

وقد ذكر القرآن الكريم قصة مريم عليها السلام في سورتي آل عمران ومريم؛ تكريمًا للبتول وتعظيمًا لشأنها وما كان منها مما يجب أن يكون نبراسًا للعالمين. قال تعالى: "إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم. فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. فقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتًا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنا لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب". سورة آل عمران من "الآيات ٤٢: ٤٩" .

وقوله تعالى:" **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا.** فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا. قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا. قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا . فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا .فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا. فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا. **فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ**

الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّاْ . فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّاْ "سورة مريم الآيات ١٧: ٣٧ "

لما وضعتها أمها لفتها في خروقها ثم خرجت بها إلى بيت المقدس فسلمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به، فتنازعوا فيها أيهم يكفل مريم، ولما أرادها زكريا عليه السلام وكذا خصومه، اقترعوا متنافسين في الأمر وتساهموا بقداحهم فرموا بها في نهر الأردن. وقد قال أهل العلم: ثبت قدح زكريا، فقام ولم يجريه الماء وجرى بقداح الآخرين، فجعل الله ذلك لزكريا عليه السلام علمًا بأنه أحق المتنازعين فيها، فضمها زكريا لنفسه. وقد قال آخرون: بل كان زكريا بعد ولادة حنة ابنتها مريم قد كفلها بغير اقتراع عليها ولا منازعة أحد إياه فيها، وإنما كفلها لأن أمها ماتت بعد موت أبيها وهي طفلة.

كبرت مريم في كنف زكريا عليه السلام، وكلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا كثيرًا من عند الله؛ يجد فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، فيقول زكريا: يا مريم أنى لكِ هذا؟ وإنما كان زكريا يقول ذلك لها لأنه كان فيما ذكر يغلق عليه سبعة أبواب ويخرج ثم

يدخل عليها، فيقول لها متعجبًا مما يرى: أنى لكِ هذا؟ فتقول: من عند الله.

وعن أنس قال: قال النبي ﷺ: "حسبك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد".

نشأة مريم البتول قانتة عابدة تتزين بمجامع الخصال الحميدة، فهي من أرض النبوة ونسل الأنبياء وهي من وهبتها أمها للعبادة، وهي من وهبت نفسها لطاعته غير مضيعة. "يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين". قال المفسرون: اتخذ لها زكريا مكانًا شريفًا من المسجد لا يدخله سواه، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة.

وعن السدي: فلما رأى زكريا من حالها ذلك، يعني فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، قال: إن ربًّا أعطاها هذا في غير حينه لقادر على أن يرزقني ذرية طيبة، إذ كان زكريا قد كبر في السن وامرأته كانت عاقرًا ورغب في الولد فقام فصلى، ثم دعا ربه سرًّا، فقال: "قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك رب شقيًّا. وإني

خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا. يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب مرضيا"، فبشره الله بيحيي عليه السلام.

قال تعالى: " وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ "
سورة آل عمران. الآيات ٤٢: ٥١

يا مريم إن الله اختارك واجتباك لطاعته وما خصك به من كرامته لا يصله أحد من العالمين في زمانك، فبطاعتك إياه فضلك عليهم. لقد أقبلت الملائكة تبشرها باصطفاء الله لها، وعندما سمع زكريا عليه السلام هذا قال: إن لابنة عمران لشأنًا، وقالت مريم: إذ قالت الملائكة: إن الله يبشرك بكلمة منه: رب أنى يكون لي ولد. من أي وجه يكون لي ولد؟ أمن قبل زوج أتزوجه وبعل أنكحه؟ أم أم تبتدئ في خلقه من غير بعل ولا فحل ومن غير أن يمسني بش؟ فقال الله لها: "كذلك الله يخلق ما يشاء".

لما كان اليوم الذي لقيها فيه جبرائيل، نفد ماؤها فقالت ليوسف ابن عمها، وكان يتعبد معها، ليذهب معها إلى الماء، فقال: عندي من الماء ما يكفيني إلى غد، فأخذت قلتها وانطلقت وحدها حتى دخلت المغارة فوجدت جبرائيل قد مثله الله لها بشرًا سويًّا، فقال لها: يا مريم إن الله قد

بعثني إليك لأهب لك غلاما زكيا "قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا. قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا. قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا".

فلما قال ذلك استسلمت لقضاء الله، فنفخ في جيب درعها ثم انصرف عنها وقد حملت بالمسيح عليه السلام، وملأت قلتها وعادت، وكان لا يعلم في أهل زمانها أعبد منها ومن ابن عمها يوسف النجار، وكان معها وهو أول من أنكر حملها، فلما رأى الذي بها استعظمه ولم يدر على ماذا يضع ذلك منها؛ فإذا أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وأنها لم تغب عنه ساعة قط، وإذا أراد يبرئها رأى الذي بها، فلما اشتد ذلك عليه كلمها، فكان أول كلامه لها أن قال: إنه قد وقع من أمرك شيء قد حرصت على أن أميته وأكتمه فغلبني، فقالت: قل قولًا جميلًا، فقال: حدثيني هل ينبت زرع بغير بذر؟ قالت: نعم، قال: فهل ينبت شجر بغير غيث يصيبه؟ قالت: نعم، قال: فهل يكون ولد بغير ذكر؟ قالت: نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه بغير بذر! ألم تعلم أن الله خلق الشجر من غير مطر! وأنه جعل بتلك القدرة الغيث حياة للشجر بعدما خلق كل واحد منهما وحده! أو تقول لن يقدر الله على أن ينبت حتى يستعين بالبذر والمطر! قال يوسف: لا أقول هكذا ولكني أقول إن الله يقدر على ما يشاء، إنما يقول له كن فيكون، قالت له: ألم تعلم أن الله خلق آدم وحواء من غير ذكر ولا أنثى! قال: بلى.. فلما قالت له وقع في نفسه بأن الذي بها شيء من الله لا يسعه أن يسألها عنه لما رأى من كتمانها له.. وقد قالت

امرأة زكريا: إني حبلى، فقالت لها مريم: وأنا أيضا حبلى، قالت امرأة زكريا: فإني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك.

اعتزلت البتول بالذي حملته وتنحت به عن الناس، فتوجهت إلى قرية من إيلياء على ستة أميال يقال لها بيت لحم لما شعرت بما تشعر به المرأة من الطلق وجاءها المخاض إلى جذع النخلة ويذكر أنه في أثناء آلام المخاض قالت: "يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا"، وهذا دليل على جواز تمني الموت عند الفتن، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبونها، وأكثر ما قيل فيها: اتهامها بابن عمها العابد يوسف النجار كان يتعبد معها في المسجد. "فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا" لقد نطق الوليد بقدرة الله تعالى ليطمئن البتول ويثبتها ماضية في طريقها راضية مطمئنة دون خوف أو حزن. وقد أشار البيضاوي في تفسيره إلى "أن مريم أتت بالمسيح وسنها كانت ثلاث عشرة سنة، وقيل: عشر سنين وإنها حاضت قبل الحمل حيضتين فقط".

"وهزي إليك بجذع النخل تساقط عليك رطبا جنيا. فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا". قال ابن الأثير: "كان الرطب يتساقط عليها وذلك في الشتاء وأصبحت الأصنام منكوسة على رؤوسها وفزعت الشياطين، فجاؤوا إلى إبليس فلما رأى جماعتهم سألهم فأخبروه، فقال: قد حدث في الأرض حادث فطار عند ذلك وغاب عنهم فمر بالمكان الذي ولد فيه عيسى فرأى الملائكة محدقين به، فعلم أن الحدث فيه ولم تمكنه الملائكة من

الدنو من عيسى، فعاد إلى أصحابه وأعلمهم بذلك وقال لهم: ما ولدت امرأة إلا وأنا حاضر، وإني لأرجو أن أضل به أكثر ممن يهتدي".

وقال البيضاوي في تفسيره: "إنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر وكانت وقت الشتاء، فهزتها فجعل الله لها رأسا وفيها خوص وثمر. قال رسول الله ﷺ: "أطعموا نساءكم الولد الرطب، فإن لم يكن رطبا فتمر وليس من الشجر أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران".

"فأتت قومها تحمله" قيل: لما ولدت ذهب إبليس فأخبر بني إسرائيل أن مريم قد ولدت، فأقبلوا يشتدون بدعوتهم، فلما رأوها "قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا. يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا".

رأى بنو إسرائيل من أمر مريم ما رأوا وفزعوا لهذا، فرموها بالخطيئة: أفمن غير ناحك يأتي الولد؟ لقد صار ما جرى حديثا تلوكه الألسنة، فاجتمع القوم عليها، ومن بينهم رؤساء الكهنة والشيوخ، فسألوها عن ذلك، فأشارت إليه وهم يتعجبون ..قيل: كان من بني إسرائيل من إذا اجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام إلا من ذكر الله، فلما قيل لمريم ما قيل كانت في حالة من حالات الصوم وهو ما جعلها تشير إلى وليدها أن تحدثوا إليه وانتظروا منه الإجابة وخذوا عنه ما يكمم أفواهكم ويسقط جميع تهمكم الباطلة.

فعلت مريم البتول مع قومها ما ألهمها الله أن تفعله، فلما طلب منها القوم الكلام و"أشارت إليه"، غضبوا وقالوا: لسخريتنا بنا أشد علينا من زناها "قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا"، وحينئذ تكلم عيسى عليه السلام "إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبيا. وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا"، كان أول ما تكلم به عيسى ابن مريم العبودية؛ ليكون أبلغ في الحجة على من يعتقد أنه إله وكان قومها قد أخذوا الحجارة ليرجموها، فلما تكلم ابنها وهو الرضيع، أخرسهم الله عز وجل وأبهتهم فتركوها وأذعنوا لقول الحق وإلى دليل البراءة لمريم عليها السلام من جميع ما ألصقوه بها من التهم "والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين".

واجهت البتول مريم ووليدها عيسى عليهما السلام كثيرا من المتاعب والعناء ولاقوا ما لاقوه من صلف اليهود وقسوتهم، وقد علمت مريم بما يدبره اليهود بمؤامرتهم التي يحيكونها ضدها وضد صغيرها، ولم تجد أمامها غير الخروج به قاصدة أرض مصر. لقد احتملت البتول جحود قومها ما استطاعت غير أنها ما كادت تعلم بمكيدتهم وإغرائهم ملك بني إسرائيل المسمى "هيردوس" بقتل وليدها المسيح بن مريم عليه السلام حتى عزمت على الفرار من وجه قومها واللجوء إلى مصر.

هاجر تلوذ بربها من أجل صغيرها إسماعيل عليه السلام، وليا امرأة أيوب تسترحمه في زوجها الذي كاد أن يقضي عليه المرض، وماشطة فرعون تسأله الصبر والثبات وهي تشاهد بأم عينها مقتل أبنائها الواحد تلو

الآخر، وها هي البتول تستصرخ السماء هل من ظل وافر؟ وملاذ آمن؟ تنظر ابنة عمران إلى السماء تدعو ربها بقلب ينفطر خوفا على صغيرها، يا من نجيت إبراهيم من النيران واصطفيت موسى وبعينيك حفظته ببيت فرعون، أقبلت اليهود وأزمعت على قتله، فارحم صغيري ونجه من أيدي اليهود، وإذ أراد الله بها الخير وجهها قبلة الأنبياء، فخرجت من فلسطين إلى مصر متى شاء الله لها أن تخرج وكان ذلك في عهد "أوكتافيوس" إمبراطور روما، فاختارت مريم طريقا وعرا يخالف الطرق المعروفة للقوافل والتجار في رحلتها لعلمها أن عمال "هيرودوس" واليهود يتعقبونها هي وابنها وأمنها الله حتى كان دخولها أرض مصر.

ويذكر أنه لما كانت مريم بمصر نزلت على دهقان كانت داره مأوى للفقراء والمساكين فسرق له مال ولم يتهم المساكين فخرجت مريم، فلما رأى عيسى حزن أمه قال: أتريدين أن أدله على ماله؟ قالت: نعم، قال: أخذه الأعمى والمقعد اشتركا فيه حمل الأعمى المقعد فأخذه، فقيل للأعمى ليحمل المقعد فأظهر العجز، فقال له المسيح: كيف قويت على حمله البارحة لما أخذتما المال؟ فاعترفا وأعاداه.

ويذكر السنكسار القبطي: أن خط سير العائلة المقدسة في مصر يبدأ من تل الفرما "منطقة تقع ما بين العريش وبورسعيد" ثم تل بسطا الواقع على الفرع البيلوزيومي للنيل "فرع للنيل كان يوجد حينها" ثم المحمة "مسطرد" ثم دقادوس "بلدة بميت غمر بمحافظة الدقهلية" ثم سمنود، ثم سخا وما حولها، وما زالت مريم تنتقل بابنها من موضع إلى آخر طلبا

للحماية والنجاة، فتصل إلى آون "المطرية وعين شمس"، ثم بابليون "مصر القديمة"، قبل أن تعبر إلى المنطقة المعروفة اليوم بالمعادي، ثم اتجهت إلى مصر العليا فوصلت إهناسيا ثم البهنسا، ثم قرية بير الجرنوس غرب مدينة مغاغة ثم عبرت النيل واتجهت شرقا إلى منطقة كونوبوليس "جبل الطير بمدينة سمالوط"، ومنها إلى هرموبوليس "الأشمونين حاليا" ثم قرية فيليس "إحدى قرى مدينة ديروط"، ثم إلى بلدة مير غربي مدينة القوصية ثم توجهت إلى جبل قسقام، فأقامت بوليدها فترة من الزمن حتى علمت أن "هيرودوس" قد مات وانتهت بموته أسباب فرارها بنبي الله عيسى عليه السلام.

وقد قضت مريم وابنها بمصر قرابة ثلاث سنوات وإحدى عشر شهرا غريبة مطاردة هلعة يرتجف قلبها خوفًا على ابنها من اليهود وعمال هيرودوس، تنتقل من بلد إلى بلد فرارا بدينها ووليدها حتى جاءت البشرى واتجهت في طريق العودة إلى الوطن، إلى بيت المقدس، حيث تنتهي رحلة المشقة والعناء، رحلة الفرار بالدين رحلة الدفاع عن العقيدة لتبدأ رحلة جديدة في طريق الدعوة إلى الله وليستقبلها ابن عمها ويحملها هي وابنها إلى الناصرة حيث عاشت مريم راعية لابنها عليهما السلام ثم سافرت به إلى بيت المقدس، فلما بلغ الثلاثين أوحى الله إليه أن يبرز للناس في كل مكان ويدعوهم إلى دينه القويم، فلم يترك جمعا إلا أتاه ولا ناديا إلا وجله ولا قرية إلا ونزل بها وتبعه بعضهم فكان عليه السلام يداوي المرضى، إذ كان غالب على زمانه الطب فأتاهم ليبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله.

لقد فعل ما أمره به الله تعالى وأحبه الناس وكثر أتباعه وعلا ذكره؛ فكان له تلاميذ حفظوا وصاياه وفقهوا دعوته واستوعبوها وأعانوه في إذاعتها في كل الأواسط، وقد أطلق الله عز وجل عليهم الحواريين.

شعر الحاكم الروماني الجديد "بيلاطس" بخطورة دعوة عيسى عليه السلام وأخذ وجهاء اليهود وعلمائهم يشوهون صورة المسيح عليه السلام عنده، فقالوا الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة وقذفوه وأمه، فلما سمع ذلك دعا عليهم.. فلما رأى بنو إسرائيل مضاء دعوته فزعوا وأجمعوا على قتله، فأمر رأس اليهود رجلًا من أصحابه اسمه "قطيانوس" أن يدخل عليه فيقتله.. وقيل إن أحد تلامذته دل اليهود على المسيح وأعطي ثلاثين درهمًا، فأتى معهم إلى البيت الذي فيه المسيح فدخله، فرفع الله المسيح وألقى شبهه على الذي دلهم عليه فأخذوه وأوثقوه وقادوه وهم يقولون له: أنت كنت تحيي الموتى وتفعل كذا وكذا فهلا تنجي نفسك؟ وهو يقول: أنا الذي دلكم عليه فلم يصغوا إلى قوله ووصلوا به إلى الخشبة وصلبوه عليها، وسرت الشائعة بصلب عيسى عليه السلام وتناقلتها الألسنة وسرت مسرى النار في الهشيم . لينفي القرآن الكريم مقالتهم الظالمة الكافرة، قال تعالى: "وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما". وبينما نقل الخبر إلى أمه البتول عليها السلام حتى رددت مقالة ابنها المحفوظة في قوله تعالى: "والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا. ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون".

قال تعالى: "فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم".

وقال قتادة: "اختلف بنو إسرائيل في عيسى بعد أن رفعه الله إيه، فانتخبوا أربعة من فقهائهم فقالوا للأول: ما تقول في عيسى؟ قال: هو الله هبط إلى الأرض فخلق ما خلق وأحيا ما أحيا ثم صعد إلى السماء، فتابعه على ذلك ناس من الناس، فكانت اليعقوبية النصارى، وقال الثلاثة الآخرون: نشهد أنك كاذب، فقالوا للثاني: ما تقول في عيسى؟ قال: هو ابن الله، فتابعه على ذلك ناس من الناس، فكانت النسطورية من النصارى، وقال الاثنان الآخران: نشهد أنك كاذب، فقالوا للثالث: ما تقول في عيسى؟ قال: هو إله وأمه إله والله إله، فتابعه على ذلك ناس من الناس، فكانت الإسرائيلية من النصارى، فقال الرابع: أشهد أن كاذب ولكنه عبد الله ورسوله هو كلمة الله وروحه، فاختصم القوم، فقال المرء المسلم: أنشدكم الله ما تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام وأن الله تبارك وتعالى لا يطعم الطعام، قالوا: اللهم نعم، قال: هل تعلمون أن عيسى كان ينام؟ قالوا: اللهم نعم، قال: فخصمهم المسلم قال: فاقتتل القوم، قال: فذكر لنا أن اليعقوبية ظهرت يومئذ وأصيب المسلمون. قال تعالى: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون".

لم تلبث مريم عليها السلام إلا زمنًا يسيرًا بعد رفع ابنها عليه السلام، قيل: خمس سنين، وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة ﵁ وأرضاها.

وتلك هي قصة البتول مريم بنت عمران وابنها روح الله وكلمته ورسوله الخاتم لبني إسرائيل عيسى بن مريم، التي كانت نموذجًا للعابدة التقية النقية الطاهرة الزكية المتوكلة على الله الربانية، حيث رأينا كيف أخلصت لله وكيف كان صبرها أمام الابتلاءات والاختبارات، وكيف كانت حياتها الدنيوية نموذجًا للزهد والبعد عن الدنيا والرغبة فيما عند الله الذي اصطفاها واختارها وفضلها على نساء العالمين. قال تعالى: "ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين".

لقد زكا الله عز وجل البتول واصطفاها على نساء العالمين لما كان منها؛ لحسن إيمانها بعيسى كلمة الله وإيمانها بالتوراة والإنجيل. لقد تعددت مناقب مريم بنت عمران حتى جعلها الله عز وجل حجة على الخلق وجعلهما آية ودليلًا على قدرته جل وعلا، فهو الذي ينشئ الأجسام من غير أصل كما أنشأ وخلق عيسى من غير أب "وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار معين". وهو القادر على أن يجعل حياة البتول عقدًا متصلا من لألأ الإيمان الفريد والتبتل الجليل والاستسلام له والصبر على المحن.

كان اصطفاء مريم بنت عمران على نساء العالمين تذكرة وعبرة وكان صدق إيمانها وانقطاعها لحماية ابنها ودعوته من بطش اليهود وعداوتهم درس للقانتات العابدات المؤمنات. عاشت البتول حياة حافلة دفاعًا عن عقيدتها وإرث الأنبياء من قبل، وكانت أهلًا للعبادة والقنوت والركوع

والسجود وأهلا للكرامة لترتقي عليها السلام بهذا الفضل أعلى المقامات الكمال في العبودية وتكون أفضل الصديقات.

عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: "كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت مُحَمَّد". وقال النبي ﷺ: "حسبك بمريم بنت عمران وامرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت مُحَمَّد، من نساء العالمين".

رضي الله عن البتول مريم بنت عمران إذ كانت قانتة لله شاكرة لأنعمه، صابرة على طاعته حتى تنال رضاه وتنزل منازل الصديقين، فهي الوالهة لحب الله وها هي مدرسة مريم البتول تعطينا درسا من أجل وأعظم الدروس؛ ألا وهو التبتل والانقطاع عن الدنيا وملذاتها والجلوس للتعبد والتفقه والصلاة، لقد كانت بحق من المصطفين الأخيار وفاقت ﵍ نساء الزمان شرفًا وتفضلًا. قال تعالى: "يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين".

أم المؤمنين " خديجة بنت خويلد "

ولدت خديجة رضي الله عنها بمكة حوالي عام ٥٥٦ للميلاد الموافق عام ٦٨ قبل الهجرة لأبوين من قريش أبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، فهي القرشية الأسدية أم أولاد رسول الله ﷺ. قال الزبير بن بكار: كانت تدعى في الجاهلية الطاهرة وأمها هي فاطمة بنت زائدة العامرية وكانت سيدة نساء العالمين في زمانها.

كانت بيوت مكة تعرف خديجة ومكانتها بين تجار قومها، فهي امرأة حازمة عاقلة شريفة، مع ما أراده الله من كرامتها، تحتفظ بجمال وشباب وكانت أرملة ورثت عن زوجها مالا كثيرا وتجارة وفيرة، حتى إن عيرها التي تحمل بضائعها كانت تعادل عير قريش كلها في حجمها ونفاستها، وما كانت تتولى خديجة أمر التجارة بنفسها بل أوكلت أناسًا يكونون وكلاء عنها في التجارة على أجر معلوم تعطيهم إياه، واتخذت خديجة لها طريقًا جادًّا بينهم ولم تتصل بهم ولم تشترك معهم في مسيرهم أو اجتماعاتهم وكان كثير من الرجال يرغب في العمل تحت يدها وبمالها. وقد تمتعت بشهرة عظيمة ومباركة من الأهل والأقارب وكان الجميع يقصدها؛ فتسد رمق المحتاج وتعين الفقير وتطعم الجائع وكان بيت ضيافتها مفتوحًا للجميع.

لم يكن أمر التجارة ليشغل بال سيدة قريش وتفكيرها؛ فهي تعتمد على عمالها الذين يدبرون الأمر وينظمونه، إلا أن بالها مشغول بهذه الكتب السماوية التي يتلوها عليها ابن عمها وخبر النبي الذي سيرسله الله لهداية الناس. ولما كان مُحَمَّد ﷺ حسن الخلق صادق الحديث أمينا وكفئا لحمل عبء الرسالة وكان حديث أهل مكة، إذ ترك رعي الإنام وأصبح يرى في السوق فقد تعلم التجارة وأرادت السيدة خديجة أن يكون وكيلا عنها في رحلة القافلة التي تحمل عيرها مع غيرها وقد وافق ما أرادت رغبة عمه أبي طالب الذي تمناه وكيلا لسيدة نساء قريش.

كان أبو طالب قد تبنى النبي ﷺ ثم إنه كان يمر بضائقة مالية بعدما خف ما بيده، فقال للنبي ﷺ: يا مُحَمَّد إن خديجة توجه غلامها ميسرة في تجارة إلى الشام، أفأكلمها لك لتخرج معه؟ قال: افعل يا عم، فجاء معه إلى خديجة فكلمها فكانت تعطي لكل رجل بعيرا فخرج مع ميسرة فأصاب ميسرة ضعفي ما كان يصيب من الربح، ثم قدما ووقع حبه في قلب ميسرة فلما قربا من مكة قال له ميسرة: يا مُحَمَّد، إن خديجة تعطي كل أجير بعيرا إذا ذهب إليها يبشرها بقدومنا فاذهب فإنها ستعطيك بعيرين، ففعل، وكانت خديجة قد قدرت قدومهم فجلست في مشربة لها ومعها نسوة من قريش ينتظرون قدومهم، إذ نظرت فإذا رجل على بعير مقبل على رأسه سحابة تظله من الشمس تسير معه، فجعلت تنظر إليه وقالت للنسوة: هل تنظرن ما أنظر؟ قلن: نرى رجلا مقبلا على بعير، قالت: فما ترين على رأسه؟ قلن: ما نرى شيئا، فوقع في قلبها أنه شيء خصت به، فلما قرب منها تبينته ثم نزلت فاستأذن عليها فأخبرها بكثرة ربحهم،

فقالت: يا مُحَمَّد، إني كنت أعطي كل أجير بعيرا وقد أعطيتك بعيرين بحمليهما فاذهب بهما إلى منزلك، ففعل ذلك النبي ﷺ. ثم أتاها ميسرة فسألته عن النبي ﷺ فقال: ما رأيت مثله أحسن صحبة ولا أعظم بركة، ما مددنا أيدينا إلى شيء إلا نلناه.

كان فيما أخبرها به ميسرة من شأنه ﷺ في رحلته إلى الشام وما بهره فيها وما سمع من كلام الراهب وما شاهد من إظلال الملكين إياه ما جعل خديجة تخلو إلى نفسها تفكر في الأمر تراودها الرؤيا القديمة التي قصتها على ابن عمها "ورقة بن نوفل"؛ فقد رأت أن شمسًا عظيمة مضيئة أشد ما يكون الضوء جمالا وجلالا تهبط إلى دارها من سماء مكة فيغمر ضوءها ما يحيط به من بقاع وأماكن، وقد قصت تلك الرؤيا على ابن عمها فاستبشر ورقة لما رأت ابنة عمه وبشرها قائلا: لك البشرى يا خديجة يا ابنة العم فهذه الشمس المضيئة علامة على قرب ظهور النبي الذي أظل زمانه ودخولها دارك دليل على أنك أنت التي ستتزوجين منه، فكان لوقع هذه الرؤيا في صدر خديجة رضي الله عنها تأثير كبير.. فتذكرت كل ذلك بجانب ما ذكره ميسرة لها بشأن رحلة الشام، فاستبشرت بفطنتها أن أحوال مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم ستأخذ مجرى عمليا في حياتها رضي الله عنها.

وقع حب الصادق الأمين في قلب سيدة نساء مكة، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ تسأله: أيا مُحَمَّد، أما لك أرب في النساء؟ قال: بلى ولكن ليس لي مال، قالت: فهل لك تتزوج بي؟ قال: وتفعلين؟ قالت: نعم، أستأذن عمي، قالت: فاستأذنه، فجاء إلى عمه فأخبره، فقال: يا مُحَمَّد إن

خديجة أيم قريش وأكثرهم مالا، وأنت يتيم قريش ولا مال لك ولكنها قالت لك هذا على العبث، فقال: ما قلت لك إلا ما قالت لي، قال: إنك لصادق. ثم إن أبا طالب بعث امرأة من أهله إلى بيت خديجة ليعلم ذلك، فذهبت ثم أتت، فقالت: يا أبا طالب، ما تعثر بشيء إلا قالت: لا شقيت يا مُحَمَّد، وما تعجب من شيء إلا قالت: لا شقيت يا مُحَمَّد، فمضى معه أبو طالب وحمزة والعباس ومن حضر من عمومته حتى أتى أباها فاستأذن عليه فأذن له وتنحى له عن مجلسه، قال أبو طالب: أنت أولى بمجلسي، قال: ما كنت لأجلس إلا بين يديك، قال: فيم قصدت؟ قال: في حاجة لمحمد، قال: لو سألني مُحَمَّد أن أزوجه خديجة لفعلت فما أحد أعز إلي منها، قال: فما جئناك إلا لنخطبك خديجة على مُحَمَّد، قال: فتكلم، فقال: إن محمدًا هو الفحل لا يقرع أنفه. ثم تكلم أبو طالب فخطب، فأخذ بعضادتي الباب ومن شاهده من قريش حضور، ثم قال: الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل وجعل لنا بيتًا معمورًا وحرمًا آمنًا تجبى إليه ثمرات كل شيء وجعلنا الحكام على الناس في مولدنا الذي نحن فيه، ثم إن ابن أخي مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب لا يوزن برجل من قريش إلا رجح به، ولا يقاس بأحد منهم إلا عظم ولا يقاس بأحد منهم إلا عظم عنه، وإن كان في المال قلة فإن في المال رزق حائل وظل زائل، وله في خديجة رغبة ولها فيه رغبة، والصداق ما سألتم عاجله وآجله من مالي وله خطر عظيم وشأن شائع جسيم.

وقد قيل عن جبير بن مطعم: إن عم خديجة عمرو بن أسد زوجها بالنبي ﷺ، وإن أباها مات قبل الفجار. وقال الواقدي: وهذا هو

الصحيح فقد نهض عمرو بن أسد عم خديجة وزعيم قومه فرد على أبي طالب ردا جميلا وأثنى على مُحَمَّد ﷺ ثناء حسنا، وأعلن تزوجه من ابنة أخيه خديجة، وبذلك تمت مراسم عقد الزواج بين أشرف زوجين وكان ذلك بعد شهرين من رحلة الشام، وكان النبي ﷺ أصدقها بعشرين بكرة وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ.

قال الحكيم بن حزام، وهو ابن أخي خديجة: تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة عمتي وهي ابنة أربعين سنة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ابن خمس وعشرين عامًا. وقد أجمعت كتب السير والتاريخ على أنه لم يكن هذا الفارق في السن مستساغًا في ذلك الوقت، مما جعل زواجهما مفاجأة، وخاصة أنها انصرفت عن الرجال وزهدت فيهم جميعًا وآثرت عليهم النبي ﷺ. ولقد أثمر هذا الزواج السعيد من الأولاد: زينب، رقية، أم كلثوم، القاسم، عبد الله، وكانت فاطمة آخر من أنجبتهم أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها.

ظلت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها مثالًا للزوجة اللبيبة الذكية الطاهرة النقية، فكانت خير معين لرسول الله ﷺ في مواصلة السير في ميادين الحياة بقلب راضٍ ونفس مطمئنة، وقد حببت إليه الخلوة والتعبد بغار حراء وهي تعينه على ذلك وتوفر له المؤونة والزاد. وفي هذه الأثناء شهد النبي صلى الله عليه وسلم حلف الفضول وهدم الكعبة ثم بنائها، إذ شهد صلى الله عليه وسلم حلف الفضول مع عمومته في دار عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن تيمة بن مرة، وذلك بعد حرب الفجار، ثم ما لبث أن

بنيت الكعبة بعد هدمها في سنة خمس وثلاثين وقيل سنة خمس وعشرين من عمره ﷺ، وذلك قبل المبعق بخمس عشرة سنة، وحينما وصلوا إلى موضع الحجر الأسود اشتجروا فيمن يضع الحجر موضعه، فأرادت كل قبيلة رفعه إلى موضعه واستعدوا للقتال وتحالفوا على الموت ومكثوا على ذلك أربع ليالٍ، فأشار عليهم أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله ـ وهو أسن قريش يومئذ أن يجعلوا بينهم حكما أول من يدخل من باب المسجد، فكان أول من دخل رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين قد رضينا به وأخبروه الخبر، فقال: هلم لي ثوبًا فأتى بثوب، يقال: إنه كساء أبيض من متاع الشام كان له ﷺ، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا، ففعلوا حتى بلغوا به موضعه فوضعه ﷺ بيده ثم بني عليه.

لما أراد الله رحمة العباد وكرامته ﷺ إلى العالمين، حبب إليه الخلاء "الخلوة"، فكان يخلوا بغار حراء كما كان يفعل ذلك متعبدو ذلك الزمان، فيقيم فيه الليالي ذوات العدد ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها. قال ابن عباس: "إن النبي ﷺ بعث وأنزل عليه الوحي وهو ابن الأربعين عامًا. وفي رواية: أنه أنزل عليه ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين عامًا. وكان ﷺ قبل أن يظهر له جبريل يرى ويعاين آثارًا من آثار من يريد الله إكرامه بفضله وكان من ذلك شق الملكين لبطنه واستخراج ما في قلبه من الغل والدنس، ومن ذلك أنه كان لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه، فكان يلتفت يمينا ويسارا فلا يرى أحدًا، وكانت الأمم تتحدث بمبعثه وتخبر علماء كل أمة قومها بذلك.

نزل الوحي على النبي ﷺ في ليلة القدر وهو في غار حراء، فانطلق يلتمس بيته خائفا يرتجف ودخل على خديجة، فقال النبي ﷺ: زملوني زملوني! ثم ذهب الروع عن النبي ﷺ، فأخبر السيدة خديجة عن أمر الوحي، فضمته إلى صدرها كي يذهب عنه الروع والخوف ثم هتفت فيه: أبشر يا ابن العم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. إنها لكلمات امرأة مؤمنة صالحة ترجو الكمال لها ولزوجها، تدعو له بالثبات ثم تعدد له مناقبه وكراماته، قائلة له: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتحمل الكل وتقوي الضعيف وتعين على النوائب. ثم انطلقت به إلى ورقة بن نوفل ابن عمها، فقالت له: اسمع من ابن أخيك، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقص عليه، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران، ليتني كنت حيا حين يخرجك قومك، فقال صلى الله عليه وسلم: أمخرجي هم؟ قال: نعم، إنه لم يجيء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، ولئن أدركني يومك لأنصرنك نصرًا مؤزرًا.

قالت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد لرسول الله ﷺ، فيما كانت تثبته على ما أكرمه الله به من نبوته: يا ابن العم أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: نعم، فجاءه جبريل، فأعلمها، فقالت: قم فاجلس على فخذي اليسرى، فقام النبي ﷺ فجلس عليها، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، فقالت: فتحول فاقعد على فخذي اليمنى فجلس عليها، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، فقسرت فألقت خمارها،

ورسول الله ﷺ في حجرها، ثم قالت: هل تراه؟ قال: لا، قالت: يا ابن عم اثبت وأبشر، فوالله إنه ملك وما هو بشيطان.

بشراك خديجة قد صدقت فراستك ونبوءتك وأثلجت صدرك، فكنت حقا أكمل نساء العالمين. كان هو الضياء في بيتك فصدقت رؤياك وجاء نبي آخر الزمان، وكان هذا أهم انعطاف في حياتك، وكنت أول من آمن من أهل الأرض بالرسالة المحمدية.

قال الزهري: فتر الوحي عن الرسول ﷺ فترة، فحزن حزنا شديدا، وجعل يغدو إلى رؤوس الجبال ليتردى منها، فكلما رقي ذروة جبل تبدى له جبريل، فيقول: إنك رسول الله حقا، فيسكن لذلك جأشه وترجع نفسه. فلما أمر الله نبيه ﷺ أن ينذر قومه عذاب الله على ما هم عليه من عبادة الأصنام وأن يحدث بنعمة ربه عليه، وهي النبوة في قول ابن إسحاق، بدأ يذكر ذلك سرا لمن يطمئن إليه من أهله، فكان أول من آمن به وصدقه من خلق الله تعالى خديجة بنت خويلد زوجته. وقال الواقدي: أجمع أصحابنا على أن أول أهل القبلة استجابة لرسول الله ﷺ خديجة.

تتابع نزول الوحي وبدء الدعوة إلى الله تعالى ونبذ عبادة الأصنام، فشمر النبي ﷺ عن ساق الاجتهاد وقام ينذر قومه ويدعوهم إلى الله عز وجل الصغير والكبير والحر والعبد والرجال والنساء والأسود والأحمر. قال مُحَّد بن إسحاق: حين أتت النبوءة وأنزل عليه "اقرأ باسم ربك"، إلى أن كلفه الله الدعوة وأمره بإظهارها فيما أنزل عليه من قوله "فاصدع بما تؤمر

وأعرض عن المشركين"، وقوله: "وأنذر عشيرتك الأقربين"، "وقل إني أنا النذير المبين"، ثلاث سنوات لا يظهر الدعوة إلا للمختصين به، منهم خديجة وعلي وأبو بكر ﵃، فدعا ثلاث سنوات مستخفيا وقيل، دعا مستخفيا أربع سنوات ثم أعلن الدعاء والصدع.

كانت خديجة ﵂ طوال فترة الدعوة السرية تقف إلى جانب النبي ﷺ، ثم ها هي إلى جواره حين بدأ الجهر بما آتاه الله؛ تهون عليه ما يلاقيه من قومه من إعراض وتكذيب وتثبته وتخفف عنه وتصدقه وتمسح عنه ما يسمعه ويكرهه من الناس. قال ابن إسحاق: حدثني هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير، عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ﵄، قال: قال رسول الله ﷺ: "أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب، لا صخب فيه ولا نصب".

كانت خديجة ﵂ تؤازره وتثبته وتكف عنه الأذى، فكانت في مراحل الدعوة الأولى خير معين لزوجها ونبيها ﷺ. علمها النبي كيف تصلي لربها وعلمها الوضوء، ثم عرفها مواقيت الصلاة آنذاك، فكانت أول من أدى الصلاة مع رسول الله ﷺ، كما كانت أول من آمن به.

وقفت سيدة نساء مكة موقف الزوجة المؤمنة إلى جوار زوجها وهي تفيض بمكارم الأخلاق وعظيم الحب والوفاء للداعية الأول والموحد الأول حين غاب عن الأرض التوحيد، وقد صلى النبي ﷺ بها كما صلى به

جبريل، فتأست خديجة بإمامها وخلقه ونهلت منه وفازت ﵂ بالصحبة الأولى بخير الناس وسيد البشر.

عن يحيي بن عفيف قال: جئت في الجاهلية إلى مكة، فنزلت على العباس بن عبد المطلب. قال: فلما طلعت الشمس وجعلت في السماء وأنا أنظر إلى الكعبة، أقبل شاب فرمى ببصره إلى السماء ثم استقبل الكعبة فقام مستقبلها فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه، قال: فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفه، فركع الشاب وركع الغلام والمرأة، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة، فخر الشاب ساجدا فسجدا معه، فقلت: يا عباس، أمر عظيم! فقال: أمر عظيم! أتدري من هذا؟ فقلت: لا، قال: هذا مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب، ابن أخي، أتدري من هذا معه؟ قال: لا، قال: هذا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، ابن أخي، أتدري من هذه المرأة التي خلفه؟ قال: لا، قال: هذه خديجة بنت خويلد، زوجة ابن أخي، وهذا حدثني إن ربك رب السماء أمرهم بهذا الذي تراهم عليه، وأيم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحدًا على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة".

لقد كان الحمل ثقيلًا والسفر في طريق الدعوة طويلًا والعثرات متلازمة، وفي كل ذلك كانت خديجة نعم السند ونعم المعين. جاء التكليف للنبي ﷺ بدعوة الناس أجميعن، قال تعالى: "وأنذر عشيرتك الأقربين"، وعن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: "وأنذر عشيرتك الأقربين" خرج النبي ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: يا صاحباه. فقالوا: من هذا الذي

يهتف؟ قالوا: محمد، فقال: يا بني فلان، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم لو خبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". فقال أبو لهب: تبا لك، ألهذا جمعتنا؟ ثم قام فنزلت هذه السورة" سورة المسد.

تلقى النبي ﷺ العداء من قريش، تارة بالإعراض وتارة بالرد والتكذيب، فعن أبي الزناد عن أبيه، قال: أخبر رجل يقال له ربيعة بن عباد قال: رأيت رسول الله ﷺ في سوق ذي المجاز، وهو يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا. والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضئ الوجه يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث يذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب.

هذه هي سنة الأنبياء وهذا هو الاختبار والابتلاء الذي أول من يصاب به الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل. لقد تعرض النبي صلى الله عليه وسلم لعداوات قومه مجتمعة فاجتمعت ألوية قريش بعصبيتها تحيك المؤامرات ضده وضد من آمن معه، إذ كانت الخصومة شديدة والمعارضة أشد عداء تجاه الضعفاء الذين فقدوا نعيم العيش ورحموا لذاته ولم يجدوا حيلة إلا كتمان إيمانهم بالنبي ﷺ؛ حتى لا يتعرضوا للأذى والتعذيب، ورغم ذلك كان الإسلام ينمو بين هؤلاء ويكثر أتباعه.

اشتد الكرب والبلاء بأصحاب رسول الله ﷺ وهموا بقتله أمام البيت في وسط الزحام فصاح أبو بكر: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟ فقال ﷺ: دعهم يا أبا بكر، فوالذي نفسي بيده أني بعثت إليهم بالذبح فتفرقوا عنه. لقد كانت فتنة وزلزال شديد.

كانت خديجة المؤمنة الصابرة تؤازره وتخفف عنه وتثبته وتواسيه، وكان حالها دائما مع رفيق الدرب عندما يشتد الأذى، الصبر، ومحاولة التخفيف عنه بلسان حال يقول: والله لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر، فيطمئن فؤاده وتسكن جوارحه وتقر نفسه الجائشة. إن الله ناصرك وناصر دينك وعاطفة الزوجة المخلصة تلهمها أطيب الكلم وأحكمه في أشد الأوقات التي تتضافر فيها أسباب الضيق النفسي والقلق؛ فهي بحق التي تسمى السكن، كما قال تعالى: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزوجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون".

لم يمنع البلاء الذي أصاب سيدة نساء مكة عندما طلق عتبة وعتيبة ابنا أبي لهب ابنتيهما رقية وأم كلثوم قبل أن يدخلا بهما، من أن تظل على ثباتها وتستكمل دورها في مناصرة الدعوة ومشاركة المسلمين الأوائل آلامهم وهمومهم وأحزانهم.

ولما اشتد الإيذاء بالرسول ﷺ والمسلمين جميعا من قريش حتى تجاوز الحد وكاد ينفد صبر الضعفاء من المسلمين، رأى الرسول ﷺ

الإذنلاباالهجرة إلى الحبشة، وهي الأرض التي يتمتع أهلها بالإنصاف والحرية والعدل والبعيدة عن سطوة المشركين من أهل مكة وبطشهم. إن اهل الحبشة أهل كتاب متمسكون بدينهم ويعتقدون بنزول نبي بعد عيسى عليه السلام هذا أوانه، وفيها حاكم "النجاشي" اشتهر بالسماحة والعدل وحسن الجوار وبانه لا يؤذي أحدًا.

يقول ابن إسحاق: "كان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا أو ولدوا بها ثلاثة وثمانين".

وقد جاء في الأثر قوله ﷺ: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا صالحًا لا يَظلم ولا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق، فاخرجوا إليها حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه".

عاشت السيدة خديجة ﵂ المحنة والآلام مع المسلمين حتى وصلت الأخبار إلى النبي ﷺ بحسن ضيافة النجاشي للمهاجرين فدعا لهم بالخير، وكذلك فرحت السيدة خديجة واطمأنت على المسلمين في الحبشة وكذلك اطمأنت على ابنتها رقية وزوجها عثمان رضي الله عنهما ودعت لهم جميعا بالخير والتوفيق والثبات وظلت تتابع أخبارهم بجانب ما تتابعه من أخبار مكة.

باءت كل محاولات المشركين بالفشل في إخماد الدعوة وضاعت الحيل والتهديدات وعلموا أن المسلمين والرسول ﷺ باتوا في منعة فلجأوا إلى

سلاح جديد؛ سلاح المقاطعة والحصار الاقتصادي ضد بني هاشم وبني عبد المطلب حتى يسلموا مُحَمَّدًا إليهم فأجمعوا ألا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم ولا يزوجوهم ولا يتزوجوا منهم وكتبوا صحيفة بذلك وتعاهدوا على ذلك ثم علقوا هذه الصحيفة في جوف الكعبة وقد لجأت قريش إلى ضرب هذا الحصار الاقتصادي على المسلمين لما رأت أن الإسلام ينتشر ويزيد وأن المسلمين قووا بإسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، وعاد إليهم عمرو بن العاص وعبد الله أبي أمية من بلاد النجاشي بما يكرهون من منع المسلمين عنهم وأمنهم عنده.

اشتد البلاء على المؤمنين وبني هاشم وبني عبد المطلب حتى كاد الأطفال يتضورون من شدة الجوع ومكثت خديجة ﵂ تحت الحصار في شعب أبي طالب صابرة محتسبة تحملت العذاب والمشقة مهاجرة إلى الله ورسوله بقلبها وبدنها تعاني قسوة الحصار وألم الجوع والعطش.

مضى بنو هاشم وبنو عبد المطلب كبيرهم وصغيرهم صابرين محتسبين يعانون الجوع إلا أبا لهب وولده فإنهم ظاهروا قريشا على بني هاشم فصارعوا في شعب أبي طالب محاصرين مضيقا عليهم أشد التضييق نحو ثلاث سنوات وقد قطعوا عنهم كل ما يجلب الطعام حتى بلغهم الجهد والأذى وكانت خديجة قد تخلت عن سلطانها ووقفت بجوار نبيها والمؤمنين بالمشورة والدعاء لتذهب ما نزل بزوجها من حزن كي يتقوى على الدعوة والسير فيها، كما شاركت المسلمين الجوع والألم زسكنت الشعب حتى

تنصر رسول الله ﷺ وتشد من أزره وتعينه على احتمال الأذى والاضطهاد صابرة محتسبة.

وكان حكيم بن حزام ابن أخي خديجة ﵂ تأتيه العير تحمل الحنطة من الشام فيقلبها الشعب ثم يضرب أعجازها فتدخل عليهم فيأخذون ما عليهم من الحنطة، فكانت هذه المحنة الشديدة على قلوب المسلمين في ظل هذا الحصار ثلاث سنوات يتضورون جوعا وعطشا وقريش تنعم بالرفاهية والحياة، غير أن أبي البحتري بن هشام ونفر من قريش سعوا إلى نقض هذه الصحيفة وتعاهدوا على القيام بنقضها فيتصدى لهم أبو جهل فقام مطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها ليجد أن الأرضة قد أكلتها إلا: "باسمك اللهم".

كان الرسول ﷺ قد أخبر عمه أبا طالب بأن الله قد أرسل على الصحيفة الأرضة فأكلت جميع ما فيها إلا ذكر الله تعالى، وبذلك وبخهم أبو طالب على صنيعهم فطأطأوا رؤوسهم ولم يجيبوا بشيء وقال في هذا أبو طالب:

وقد كان في أمر الصحيفة عبرة	متى ما يخبر غائب القوم يعجب
محا الله منها كفرهم وعقوقهم	وما نقموا من ناطق الحق معرب
فأصبح ما قالوا من الأمر باطلا	ومن يختلق ما ليس بالحق يكذب

انتهت المقاطعة والحصار وانفرجت الأزمة وزال الاختناق وخرج النبي ﷺ والمسلمون جميعهم في الشعب وبصحبة النبي ﷺ خرجت خديجة ﵂

متثاقلة وقد ألم بها المرض. عاد النبي ﷺ وزوجته وأولاده إلى بيته، ولكنه لم يسلم من إيذاء سفهاء قريش فكانوا يؤذون رسول الله ﷺ . أخزاهم الله . وكان جيرانه من الكفار لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن العاص فكان أحدهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي ومنهم من ينثر عليه التراب ومنهم من يرميه بسلي الجذور وأحشائه بل رموه بسفهائهم، فقالوا: دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو مات لانقطع ذكره. لتنحدر دموع خديجة وتتذكر أولادها: القاسم، وعبد الله اللذين توفاهما الله إلا أن السماء تسري عنها، وتثبت الرسول ﷺ وتمنحه الفضل العظيم "إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر".

داهم خديجة المرض وأعياها وقد تجاوزت الستين من عمرها لترقد السيدة المجاهدة أم المؤمنين ويتمكن منها المرض. وتعلم بموت أبي طالب عم الرسول ﷺ وناصره وآزره ومانع قريش وحلفاؤها منه، فتزداد خوفا على رفيق دربها وعلى دعوته الوليدة. قال النبي صلى الله عليه السلام: "ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب". حزنت خديجة رضي الله عنها لحزن النبي ﷺ حتى اشتدت عليها آلام المرض، فكان مصاب النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والدعوة فادحا. قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد.

كانت خديجة رضي الله عنها نعم الوزير الصادق، يشكو إليها إعراض قومه وإنكارهم له وهي تخفف عنه وتثبته وتؤازره، حتى مرضها الأخيرلا نراها إلا وهي تواسي النبي ﷺ وتشد من أزره وتعينه على مصابه. لقد كانت بحق

نعم الناصر والمعين. وكانت وفاتها ﵂ عقب وفاة أبي طالب بخمسة وخمسون يوما، فعظمت المصيبة على رسول الله ﷺ وسمي هذا العام "عام الحزن" . وقد توفيت ﵂ في رمضان ودفنت بالحجون عن خمس وستين عاما.

قال مروان بن معاوية، عن وائل بن داود، عن عبد الله البهي، قال: قالت عائشة: "كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكد يسأم من ثناء عليها واستغفارٍ لها، ذكرها يوما حملتني الغيرة، فقلت: لقد عوضك الله من كبيرة السن! قال: فرأيته غضب غضبا، أسقطت في خلدي رجاء في نفسي: اللهم إن أذهبت غضب رسولك عني لم أعد أذكرها بسوء، فلما رأى النبي ﷺ ما لقيت، قال: كيف قلت؟ والله لقد آمنت بي إذ كذبني الناس وآوتني إذ رفضني الناس ورزقت منها الولد وحرمتموه مني، قالت: فغدا وراح عليَّ بها شهرًا".

آمنت خديجة ﵂ منذ أن التقى مُحَّد ﷺ بروح القدس جبريل عليه السلام، وعاد إليها يرجف فؤاده وأخبرها ورقة ابن عمها بمكانة مُحَّد صلى الله عليه وسلم وأنه رسول ذلك الزمان وأنه لا نبي بعده، وكانت منزلتها فوق منزلة نساء الأنبياء أجمعين، كانت عاقلة جليلة دينة مصونة كريمة من أهل الجنة، ومن كرامتها عليه ﷺ أنه لم يتزوج امرأة قبلها وجاءه منها الأولاد ولم يتزوج عليها قط ولا تسرى إلى أن قضت نحبها فوجد لفقدها فإنها كانت نعم القرين وكانت تنفق عليه من مالها ويتجر هو صلى الله عليه

وسلم لها. وقد أمره الله أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، قال النبي ﷺ: "إني قد رزقت حبها".

وعن عبد الله بن جعفر: سمعت عليا: سمعت النبي ﷺ يقول: "خير نسائها خديجة بنت خويلد، وخير نسائها مريم بنت عمران".

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى إذا أحب عبدًا دعا جبريل عليه السلام، فقال: إني أحببت فلانًا، فأحبه، قال: فيحبه جبريل، قال: وينادي جبريل في السماء: إن الله تعالى قد أحب فلانًا فأحبوه، قال: فيحبه أهل السماء، قال: ويوضع له القبول في الأرض".

لما آمنت ﵂ بمحمد ﷺ منذ الابتداء، كان إيمانها بردا وسلاما على زوجها في دعوته حين خذله الناس، وكانت له السكن حين آذاه الناس، فكانت ذات منزلة فوق منزلة نساء الأنبياء أجمعين، بل حمل لها الأمين جبريل عليه السلام تحية طيبة مباركة من السماء وبشرى ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

قال القاضي أبي الفرج المعافي النهرواني: إن الله ﷻ يحب من عباده من أطاعه ويضع القبول لمن قبل وصاياه وعمل بما يعود بمرضاته، فنسأل الله تعالى توفيقنا لطاعته الموجبة لمحبته، وعصمتنا من معصيته المؤدية إلى سخطه، فطوبى لمن أطاع ربه فأحبه وويل لمن عصاه وأغضبه، وقد قال تعالى: "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم"، ومن أحبه ربه أكرمه ولم يهنه ونعمه ولم يعذبه وخديجة جعلت

رضا ربها غايتها فكان القصد والهم هو الله وكان الجزاء هو الجنة. فسلام الله عليك يا أم المؤمنين، كنت أنفع الناس وأحب الناس وأشرف الناس إلى قلب رسول الله ﷺ. رضي الله عنها وأرضاها كانت نعم الزوجة بذلت نفسها ومالها في سبيل الله، ناصرت زوجها في دعوته ووضعت الأساس لكل زوجة تتطلع للفلاح والنعيم: طاعة الزوج والقيام بحقه، وهذا ما سلكته خديجة رضي الله عنها فكانت خير زوجة لخير زوج. قال النبي ﷺ: "نساء قريش خير نساء ركبن الإبل، أحناه على طفل في صغره وأرعاه على زوج في ذات يده".

الصديقة " عائشة بنت أبي بكر "

هي الصديقة بنت الصديق، خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن يتم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشية التميمية، أم المؤمنين زوجة النبي صلى عليه وسلم، أفقه نساء الأمة على الإطلاق. كانت تلقب بـ"الحميراء"، وأمها هي أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب ابن أينة الكنانية، تزوجها النبي ﷺ قبل الهجرة وبعد وفاة أم المؤمنين خديجة ﵂، وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهرًا، وقيل بعامين، ودخل بها النبي صلى الله عليه وسلم في شوال سنة اثنتين.

كان زواجه ﷺ بها إثر وفاة خديجة، فتزوج بها وبـ"سودة" في وقت واحد، ثم دخل بـ"سودة" فتفرد بها ثلاثة أعوام حتى بنى بعائشة في شوال بعد غزوة بدر، فما تزوج بكرا سواها وأحبها حبًّا شديدًا كان يتظاهر به، حيث إن عمرو بن العاص، وهو من أسلم سنة ثمان من الهجرة، سأل النبي ﷺ: "أي الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: عائشة، قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها".

وعن ابن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة، قالت: قال النبي ﷺ: "أريتك في المنام ثلاث ليال، جاء بك الملك في سرقة من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فكشف عن وجهك فإذا أنت هي، فأقول: أن بك

هذا من عند الله يمضيه". وقد اختارت السماء تزويج النبي صلى الله عليه وسلم من عائشة بنت أب بكر، إذ تدل بعض الروايات على أن الوحي جاءه ﷺ منامًاوتهيأ في صورة عائشة ليخبره هذا الاختيار، وليهيئ قلبه ﷺ ومشاعره للزواج منها بعد وفاة خديجة بنت خويلد ﵂.

وعن ابن إدريس عن مُحَمَّد بن عمرو عن يحيي بع عبد الرحمن بن حاطب، قال: قالت عائشة: "لما ماتت خديجة، جاءت خولة بنت حكيم، فقالت: يا رسول الله، ألا تتزوج؟ قال: ومن؟ قالت: إن شئت بكرا وإن شئت ثيبًا؟ قال: من البكر ومن الثيب؟ قالت: أما البكر، فعائشة ابنة أحب خلق الله إليك، وأما الثيب، فسودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك، قال: اذكريهما عليَّ، قالت: فأتيت أم رومان فقلت: يا أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة، قالت: ماذا؟ قالت: رسول الله ﷺ يذكر عائشة، قالت: انتظري، فإن أبا بكر آت، فجاء أبو بكر، فذكرت ذلك له، فقال: أو تصلح له وهي ابنة أخيه؟ فقال رسول الله ﷺ: أنا أخوه وهو أخي وابنته تصلح لي. قالت فقام أبو بكر، فقالت لي أم رومان: إن المطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه، ووالله ما أخلف وعدًا قط . تعني أبا بكر. قالت: فأتى أبو بكر مطعم، فقال: ما تقول في أمر هذه الجارية ."يقصد ابنته".؟ قال: فأقبل على امرأته فقال: ما تقولين؟ فأقبلت على أبي بكر، فقالت: لعلنا إن أنكحنا هذا الفتى إليك تدخله في دينك! فأقبل عليه أبو بكر، فقال: ما تقول أنت؟ قال: إنها لتقول ما تسمع، فقام أبو بكر وليس في نفسه من الموعد شيء، فقال لخولة بنت

حكيم: قولي لرسول الله ﷺ فليأت، فجاء، فملكها، قالت: ثم انطلق إلى سودة وأبوها شيخ كبير..".

وقد ذكر الواقدي: أن رسول الله ﷺ يختلف إلى بيت أبي بكر ويقول: "يا أم رومان استوصى بعائشة واحفظيني فيها". فكان لعائشة بذلك منزلة عند أهلها، وكان ﷺ لا يخطئه يومًا واحدًا أن يأتي إلى بيت أبي بكر من أسلم إلى أن هاجر، فيجد عائشة متسترة بباب الدار تبكي بكاء حزينا، فسألها فشكت أمها فدمعت عيناه ودخل على أم رومان، فقال: "يا أم رومان، ألم أوصك بعائشة".

عقد النبي ﷺ على عائشة وأصدقها أربعمائة درهم، وكان ذلك بمكة في شوال قبل الهجرة بثلاث سنوات، وهي بنت ست سنين وفي رواية أنها كانت بنت سبع سنين. وقد عاشت عائشة رضي الله عنها أحداث الدعوة الأولى مع أبيها قبل الهجرة، وشاهدت ما ألم بالمسلمين الأوائل من اضطهاد وتعذيب، ومعاناة النبي ﷺ وطلبه النصرة من القابئل العربية. وعاينت كيف أنه لما اشتد الإيذاء بالمسلمين أمرهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى يثرب بعد أن كانوا يهاجرون إلى الحبشة، وعلم قريش بعزم النبي ﷺ على الهجرة إلى يثرب، وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى يثرب، خافوا من خروج رسول الله ﷺ ولحاقه بهم فيشتد عليهم أمره، فاجتمعوا في دار الندوة ولم يتخلف أحد من أهل الرأي والحجى منهم ليتشاوروا في أمره. وأجمعوا كيدهم على قتل رسول الله ﷺ، فجاء جبريل بالوحي فأخبره بذلك. وأذن لرسول الله ﷺ بالهجرة ومعه صاحبه أبو بكر الصديق، واستخلف النبي

ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب بمكة ليؤدي عنه ودائع كانت عنده للناس، فلما حانت ساعة الرحيل وقف النبي ﷺ على تل مرتفع، مستشرف الكعبة ثم نظر إلى "مكة" وطنه وعينه قد ذرفت الدموع، وقال: "والله إنك لأحب أرض الله إليَّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أهلك أخرجوني منك ما خرجت".

وعن ابن عباس: "إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد"، قال: إلى مكة، أي: أنهم كما أخرجوك منها، فإن الله لرادك يا مُحَّد إلى أرض مولدك "مكة".

خرج النبي ﷺ مهاجرًا بدعوته إلى يثرب وبقيت عائشة مع أمها وإخوتها في مكة ينتظرون قدوم رسول من عند رسول الله ﷺ يخبرهم بوصوله إلى مأمنه حتى يتمكنوا من اللحاق به. وما كاد يستقر الرسول ﷺ بالمدينة، هو وصاحبه أبو بكر، حتى بعث زيد بن حارثة ومعه أبو رافع مولاه وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم، حتى يشتريان ما يحتاجان إليه مما يركب من الدواب وخرجت عائشة وأمها وأختها أسماء وعبد الله بن أبي بكر، وكان في صحبتهم فاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة وأم أيمن.

قال الواقدي عن عائشة قالت: "ذكرت الحديث: حتى إذا كنا بالبيض من منى، نفر بعيري وأنا في محفة معي فيها أمي، فجعلت أمي تقول: وابنتاه! واعروساه! حتى أدرك بعيرنا وقد هبط من لفت، وسلم الله عز وجل، ثم إنا قدمنا المدينة فنزلت مع عيال أبي بكر".

قدم آل رسول الله ﷺ وآل الصديق المدينة، فنزلت عائشة ﵂ مع عيال أبي بكر ومكثت بمنزله، ثم قال أبو بكر: يا رسول الله ما منعك من أن تبني بأهلك؟ قال النبي ﷺ: الصداق، فأعطاه أبو بكر الصداق اثنتي عشرة أوقية ونشًا، وبعث بها رسول الله ﷺ إلينا، وبني بي رسول الله في بيتي هذا الذي أنا فيه". وقد بني ﷺ بعائشة ﵂ بعد مقدمه المدينة بتسعة أشهر، وقيل بثمانية أشهر في يوم الأربعاء من شوال، وقيل في ذي القعدة، بالسنح في بيت أبي بكر.

تقول عائشة ﵂: "لما قدمنا نزلنا بالسنح في دار بني الحارث بن الخزرج. قالت: فإني لأرجح بين عذقين وأنا ابنة تسع فجاءت أمي فأنزلتني، ثم مشت بي حتى انتهت بي إلى الباب وأنا أنهج، فمسحت بشيء من الماء ومزقت جميمة شعر كانت لي، ثم دخلت بي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي البيت رجال ونساء، فقالت: هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك. قالت: فقام الرجال والنساء فخرجوا وبنى بي النبي ﷺ، ولا والله ما نحرت عليَّ من جذور ولا ذبحت من شاة، ولكن جفنة كان يبعث بها سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ يجعلها إذ ذاك بين نسائه، فقد علمت أنها بعث بها.

انتقلت عائشة إلى كنف رسول الله ﷺ الأب الرحيم والزوج العطوف؛ فهيأ لها حياتها الجديدة كزوجة لخير خلق الله أجمعين، غير أنه ﷺ حرص على ألا يفقدها إحساسها بصباها، فعن هشام عن أبيه عنها

انها قالت: "كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان النبي ﷺ إذا دخل يقتمعن منه، فيسربهن إليَّ، فيلعبن معي".

وعن عائشة ﵂ قالت: "دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب بالبنات، فقال: ما هذا يا عائشة؟ قلت: خيل سليمان ولها أجنحة، فضحك". وذكر الزهري عن عروة عن عائشة قالت: "لقد رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وانا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا التي أسأمه، فقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو".

كبرت عائشة واكتمل نموها في بيت النبوة وتم بناء حجرة لها ملحقة بمسجد رسول الله ﷺ وأصبحت شابة كاملة النضوج، تدرجت وتربت على يد المصطفي صلى الله عليه وسلموفي رحاب الدعوة. عن عائشة أنها قالت: "لما قدم رسول الله ﷺ المدينة اشتكى أصحابه واشتكى أبو بكر وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر وبلال، فاستأذنت عائشة ﵂ النبي ﷺ في عيادتهم فأذن لها، وكان ذلك قبل أن يضرب الحجاب، فقالت لأبي بكر: كيف تجدك؟ قال:

كل امرئ مصبح في أهله　　　الموت أدنى من شراك نعله

وسألت عامر بن فهيرة، فقال:

أني وجدت الموت قبل ذوقه　　　إن الجبان حتفه من فوقه

وسألت بلالًا، فقال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفخ وحولي إذخر وجليل

فأتت رسول الله ﷺ، فأخبرته بقولهم، فنظر إلى السماء ثم قال: "اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وأشد، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدها وانقل وباءها إلى مهيعة". ويعني أرض الجحفة قريبة إلى المدينة.

شبت عائشة وازدادت وعيًا وفطنة، وأصبح شأنها كشأن النساء يسألن النبي ﷺ في المسائل الدقيقة فتسمع منه وتحفظ عنه، تعي وتتعلم، حتى أنها تستفسر عما غمض وتشرح للنساء ما يستحي رسول الله صلى الله عليه وسلم من توضيحه وبيانه، فكانت الصديقة أكثر أمهات المؤمنين رواية للحديث بل وأفضل نساء العالمين على الإطلاق علمًا.

قال الزهري: "ولو جمع علم عائشة إلى جميع علم أزواج رسول الله ﷺ وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل".

لقد كانت عائشة الحبيبة المقربة إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمقدمة على جميع زوجاته؛ فهي أصغرهن سنا وهي الودود المحبة الحنون. قالت عائشة: "كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، قالت فاجتمعن صواحبي إلى أم سلمة، فقلن لها: إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فقولي لرسول الله صلى الله عليه

وسلم يأمر الناس أن يهدا له أينما كان، فذكرت أم سلمة له ذلك، فسكت، فلم يرد عليها، فعادت الثانية فلم يرد عليها، فلما كانت الثالثة قال: يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليَّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها".

ظلت الحياة دافئة في بيت عائشة ﵂، حيث كانت تأخذ عن رسول الله ﷺ كل معاني الوحي المنزل حتى آخر آية؛ استجابة لأوامر الله "واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا"، فبشرها رسول الله ﷺ بالجنى عندما سألته: من من أزواجك في الجنة؟ قال: أنت منهن. وسألته يوما قائلة: يا نبي الله ألا تكنيني؟ قال: اكتني بابن أختك أسماء عبد الله بن الزبير، فكانت ﵂ تكنى بأم عبد الله. وكانت ﵂ امرأة لا تلد، فخفف عنها لك.

وكانت ﵂ تقول لنساء النبي ﷺ: "فضلت عليكن بعشر ولا فخر، كنت أحب نسائه إليه، وكان أبي أحب رجاله إليه، وابتكرني ولم يبتكر غيري وتزوجني لسبع وبنى بي لتسع، ونزل عذري من السماء، واستأذن النبي ﷺ نساءه في مرضه، فقال: "إنه ليشق على الاختلاف بينكن، فائذن لي أن أكون عند بعضكن، فقالت أم سلمة: قد عرفنا من تريد، تريد عائشة، قد أذنا لك، وكان آخر زاده من الدنيا ريقي، أتى بسواك، فقال: انكثيه يا عائشة فنكثته، وقبض بين حجري ونحري ودفن في بيتي".

لم تمض حياة الصديقة في بيت النبوة دون ابتلاء واختبار وقد جاء الاختبار في غزوة المريسيع سنة خمس من الهجرة وعمرها ﵂ يومئذ اثنتا عشرة سنة، وكان النبي ﷺ إذا هم بسفر اقترع بين نسائه أيهم يصحبه في سفره. عن الزهري عن عائشة: "أن النبي ﷺ كان إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه، فاقترع بيننا في غزوة المريسيع فخرج سهمي.

وعنها قالت: ".. فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وانزل فيه مسيرنا حتى إذا فرغ النبي ﷺ من غزوه، وقفل ودنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل، فقمت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت من شأني، أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت ألتمس عقدي فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، ولم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكانت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب. فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ، فبينما أنا جالسة غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي، ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني، فعرفني حين رآني، وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب عليَّ، فاستيقظت باسترجاعه حين

عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما كلمني كلمة غير استرجاعي، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته، فوطي على يدها فركبتها. فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول. فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا، والناس يفيضون في قول الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين اشتكى، إنما يدخل عليَّ فيسلم، ثم يقول: كيف تيكم؟ فذلك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت وخرجت مع أم مسطح قبل المناصع، وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذاك قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا. فانطلقت أنا وأم مسطح، وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد. فأقبلت أنا وهي قبل بيتي قد فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح! فقلت لها: بئس ما قلت! أتسبين رجلا قد شهد بدرا؟ قالت: أي هنتاه، أولم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضي.

فلما رجعت إلى بيتي، دخل علي النبي ﷺ ثم قال: كيف تيكم؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبي؟ وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما. فأذن لي. فجئت أبوي، فقلت لأمي: يا أمتاه، ما يتحدث الناس؟ قالت:

يا بنية! هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولاه ضرائر إلا كثرن عليها. فقلت: سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟! فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم. ثم أصبحت أبكي. ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد، حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله. قالت: فأما أسامة، فأشار على النبي ﷺ بالذي يعلمه من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا. وأما علي، فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: أي بريرة، هل رأيت شيئا يريبك من عائشة؟ قلت: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله.

قالت: فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول، فقال وهو على المنبر: يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي. فقام سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزج، وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن اجتهلته الحمية، فقال:لسعد: كذبت لعمر الله! لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال: كذبت! لعمر الله لنقتله، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان: الأوس والخزرج حتى هموا أن

يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل النوم، ثم ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبوايا يظنان أن البكاء فالق كبدي. فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي، استأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك، دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم. ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل في ما قيل، ولقد لبثت شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء.

قالت: فتشهد، ثم قال: أما بعد، يا عائشة. فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه. فلما قضى مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ، فقالت والله ما أدري ما أقول. فقلت وأنا يومئذ حديثة السن لا أقرأ كثيرا في القرآن: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة ـ والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني بريئة، لتصدقوني. وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا قول أبي يوسف: "فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون". قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا أعلم أني بريئة، وأن الله تعالى يبرئني

ببراءتي، ولكن والله ما ظننت أن الله ينزل في شأني وحيا يتلى، ولشأني كان في نفسي أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى نزل عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه. فلما سرى عنه وهو يضحك، كان أول كلمة تكلم بها: أبشري يا عائشة، أما والله لقد برأك الله. فقالت أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله. وأنزل الله تعالى: سورة النور. الآيات ١١: ٢١

فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح قرابته وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة، فأنزلت: سورة النور. الآية ٢٢

قال: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا. قالت: وكان النبي ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقالت: أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيرا، وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك.

وقد قال ابن عباس: "قوله: "إن الذي جاءوا بالإفك عصبة منكم"، الذين افتروا على عائشة، عبد الله بن أبي، وهو الذي تولى كبره، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش".

وعن أبي الضحى، وعن مسروق، قال: كنت عند عائشة، فدخل حسان بن ثابت، فأمرت، فأقى له وسادة، فلما خرج قلت لعائشة: ما تصنعين بها وقد قال الله ما قال؟ فقالت: قال الله: "والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم". وقد ذهب بصره ولعل الله يجعل ذلك العذاب العظيم ذهاب بصره.

قال ابن إسحاق، وقال حسان في عائشة:

رأيتك . وليغفر لك الله . حرة	من المحصنات غير ذات غوائل
حصان رزان ما تزن بريبة	وتصبح غرثي من لحوم الغوافل
وإن الذي قد قيل ليس بلائق	بك الدهر بل قيل امرئ متماحل
فإن كنت أهجوكم كما بلغوكم	فلا رفعت سوطي إلى أناملي
وكيف وودي ما حييت ونصرتي	لآل رسول الله زين المحافل
وأن لهم عزا يرى الناس دونه	قصارا وطال العز كل التطاول
عقيلة حي بن لؤي بن غالب	كراما المساعي مجدهم غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها	وطهرها من كل سوء وباطل

جاءت براءة عائشة من فوق سبع سموات وخرج النبي ﷺ على الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله تعالى من القرآن؛ ليرد كيد المنافقين ويؤكد وهو العليم الخبير طهر وعفاف الصديقة بنت الصديق ورفيقة خير الخلق أجمعين. لقد كان مصاب عائشة ﵁ عظيمًا وقاسيا، غير أنها صبرت واحتسبت ووثقت أن الله ناصرها رغم كيد الكائدين.

لم ترض أن يبرءها من خبر خلقها من وجهاء المسلمين ولم تقبل البراءة حتى من رسول الله الكريم ﷺ وأبت نفسها العفيفة التقية إلا تنتظر أن يأتي لها البرهان المبين، فكان البرهان من عند الله تبرئة لعفافها من كل دنس وكان أن أنزل فيها قرآن يتلى إلى يوم الدين تكريما لها وتعويضا عما نال ثوبها الطاهر من غبن ودنس.

عن مُحَمَّد بن عبد الله بن جحش، قال: "تفاخرت عائشة وزينب قال: فقالت زينب: أنا التي نزل تزويجي من السماء، قال: قالت عائشة: أنا التي نزل عذري في كتابه حين حملني ابن المعطل على الراحلة، فقالت لها زينب: يا عائشة ما قلت حين ركبتيها؟قالت: حسبي الله ونعم الوكيل، قالت: قلت كلمة المؤمنين".

إن قذف المحصنات الغافلات لكبيرة من الكبائر التي يعاقب عليها المولى عز وجل وقد بينها الله في حد القذف واللعان حتى لا يقع فيها عباده، وحضهم على فعل الخيرات وتجنب تلك الموبقات، قال صلى الله عليه وسلم: "اجتنبوا السبع الموبقات" قيا: يا رسول الله ما هي؟ قال:

"الإشراك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحفن وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات". فما بالنا وقد وقع القذف في حق الصديقة بنت الصديق وزوجة المصطفي خاتم النبيين ورمز الطهر والفاف منذ ولدت وحتى يوم الدين! قال تعالى: "إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم". رميت يا طاهرة بما رميت وأنت عنهم غافلة فظنوا فعلتهم لك هي القاتلة فجاءت البشرى من الله في عشر آيات قائلة تفضح فعلتهم إلى يوم القيامة وباتوا في لعنة هم الخاسرة. سطرت يومها بصبرك وإيمانك درسا تتعلمه الأجيال وكانت البراءة في عشر آيات كالبرهان.

لم تتوقف عائشة عند حادثة الإفك طويلا، بل تابعت جهادها في سبيل الدين، زوجة ورفيقة وتلميذة نجيبة في حضرة المصطفي صلى الله عليه وسلم فبعد أن سجدت لله حامدة شاكرة على نعمائه، ما لبث نشاطها أن ازداد تؤازر زوجها في دعوته وتخفف عنه الآلام وتبذل له النصيحة بما لها من حكمة وفطنة وذكاء.

كانت الصديقة عائشة ﵂ قد ملأت قلب الرسول ﷺ حبا مستفيضا وكان لها دور كبير في حياته وتخفيف بعض ما كان يعانيه من تبعات الدعوة وأمور المسلمين. ولا يفتأ أحد أن يقلل من حبها للنبي صلى الله عليه وسلم إذ كان حب عائشة ﵂ للرسول ﷺ لا يعادله حب، وكانت الغيرة تسيطر عليها حتى لتكاد تدفعها إلى أمور تغضب النبي صلى

الله عليه وسلم وتقلقه، فعن ابن عباس أنه قال: قوله تعالى: "يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم. قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم". قال: كانت حفصة وعائشة متحابتين وكانتا زوجتي رسول الله ﷺ فهبت حفصة إلى أبيها فتحدثت عنده، فأرسل النبي ﷺ إلى جاريته فظلت معه في بيت حفصة، وكان اليوم الذي يأتي فيه إلى عائشة فرجعت حفصة فوجدتها في بيتها فجعلت تنتظر خروجها وغارت غيرة شديدة، فأخرج النبي صلى الله عليه وسلم جاريته ودخلت حفصة، فقالت: قد رأيت من كان عندك، والله قد سؤتني، فقال النبي ﷺ: "والله لأرضينك فإني مسر إليك سرا فاحفظيه. قالت: ما هو؟ قال: إني أشهدك أن مسريتي هذه علي حرام رضاء لك، وكانت حفصة وعائشة تظاهران على نساء النبي ﷺ فانطلقت حفصة إلى عائشة، فأسرت إليها أن أبشري إن النبي ﷺ قد حرم عليه فتاته، فلما أخبرت بسر النبي ﷺ أظهر الله عز وجل للنبي ﷺ فأنزل الله على رسوله لما تظاهرتا عليه هذه الآية".

لقد بلغ الأسى والحزن من النبي ﷺ كل مبلغ فاعتزل نساءه لما شق عليه من إفشاء سره. فعن عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل نبي الله نساءه، دخلت المسجد فإذ بالناس ينكتون بالحصى ويقولون طلق رسول الله نسائه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب، فقلت لأعلمن ذلك اليوم: فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة ووعظه إياهما إلى أن قال: فدخلت فإذا برباح غلام رسول الله على أسكفة المشربة فناديت فقلت يا رابح استأذن لي على رسول الله، فذكر نحو ما تقدم إلى أن قال: فقلت يا رسول

الله ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وما تكلمت وأحمد الله بكلام غلا رجوت الله أن تكون قولي، ونزلت آية التخيير: "عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكم".

وعن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ: "اجتمع رسول الله ﷺ ونساؤه في الغيرة، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن، قال: فنزل ذلك".

شاع في المسلمين أن النبي ﷺ طلق نساءه، فكان التذمر من نساء النبي ﷺ من حادثين: الاول النفقة والآخر الغيرة، فاحتجب أزواجه حتى يقضي الله فيهم، وعاش النبي ﷺ في عزلة دامت شهرا، حتى تاب نساؤه ورضين بالله ربا وبمحمد نبيا ورسولا وزوجا يبذلن له المودة والطاعة، وقبلن العيش معه دون النظر إلى متاع الدنيا. وعن عائشة انها قالت: "ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة وهلكت قبل أن يتزوجني". وعن عائشة قالت: "ذكر رسول الله ﷺ يومًا خديجة، فأطنب في الثناء عليها فأدركني ما يدرك النساء من الغيرة، فقلت: لقد أعقبك الله يا رسول الله من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيرا لم أره تغير عند شيء قط إلا عند نزول الوحي أو عند المخيلة حتى يعلم رحمة أو عذابًا".

وفي رواية أنها قالت: "أبدلك الله خيرا منها، فقال ﷺ: "ما أبدلني الله خيرًا منها؛ وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس وصدقتني إذ كذبني، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله إذ حرمني أولاد النساء".

يقول الإمام الذهبي رحمه الله: "وهذا أعجب شيء أن تغار من امرأة ميتة ولا تغار من نسوة يشاركنها فيه ﷺ. لا تغار من أم سلمة ولا من أم حبيبة ولا حفصة ولا زينب، وتغار من امرأة ميتة، وهذا من لطف الله بنبيه حتى لا يتكدر عيشه. لا تغار من نظيراتها وتغار من خديجة لكثرة ما كان يذكرها ويثني عليها.

هي طبيعة النساء تتلاطف بحار العواطف معهن وتسكن ثم تهيج مع الرياح. ليست خديجة وحدها من تغار منها عائشة رضي الله عنهما، بل كانت في حقيقة أمرها تغار أشد الغيرة من زوجتين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أم سلمة وزينب بنت جحش، فقد قالت يومًا للنبي صلى الله عليه وسلم وهو داخل عليها: "أين كنت يا رسول الله؟ قال: كنت عند أم سلمة، قالت: أما تشبع، فتبسم". وخرجت عائشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، وكان متاع عائشة فيه خف وكان على جمل ناج، وكان متاع صفية بنت حيي فيه ثقل وكان على جمل بطئ، فقال ﷺ: حولوا متاع عائشة على جمل صفية وحولوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضي الركب. فلما رأت عائشة ذلك قالت: يا لعباد الله غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: يا أم عبد الله إن متاعك كان فيه خف، وكان متاع صفية فيه ثقل فأبطأ الركب، فحولنا

متاعها على بعيرك وحولنا متاعك على بعيرها، فقالت عائشة: أليس تزعم أنك رسول الله؟ فتبسم وقال: أو في شك أنت يا أم عبد الله؟ فعادت فقالت: أو لست تزعم أنك رسول الله، فهلا عدلت؟ فسمعها أبو بكر وكان فيه حدة، فأقبل عليها ولطم وجهها، فقال ﷺ: مهلًا يا أبا بكر، فقال: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالت؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الغيران لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه".

لم تدع الصديقة غيرتها تفسد الحب في قلبها، فالغيرة كما وصفها علماء النفس إحدى لبنات الحب، وكيف لا تغار وهي زوجة لأعظم رجل في العالم. يقول ﷺ: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر". يشاركها في حبها له الآلاف من الرجال والنساء بل المليارات من إنس وجان. لقد كان صلى الله عليه وسلم يبين أن الغيرة صفة إنسانية لا يستطيع أحد أن يبرأ منها، وكان عندما يرى غيرتها يقول لمن حوله: "ويحها، لو استطاعت ما فعلت"، بل وكان يعتبر الغيرة عذرًا مقبولًا، لأن سلوكيات منها قد لا تكون مقبولة له كان يعتذر عنها للجميع قائلا: "غارت أمكم"، بل وهي نفسها تعلل شدة غيرتها، إذ يقول لها النبي ﷺ: "مالك يا عائشة، أغرت؟ فتقول: وما لي لا يغار مثلي على مثلك".

تقول بنت الشاطئ: "عائشة أنثى سليمة الفطرة، ينزع بها ميراثها العاطفي إلى حواء، فتستجيب له دون أن تتكلف نفاقًا أو مداراة.. وما غيرتها الشديدة بعد هذا كله إلا مظهر حب عميق لرجلها الفريد ودليل

تعلق بالرسول ﷺ ورغبة لا تقاوم في الاستئثار به والتفرد بقلبه، هذه الغيرة الحميدة تنبع من حب دافئ من امرأة سليمة الفطرة والقلب".

استطاعت عائشة ﵂ برجاحة عقلها وحسن تصرفها أن تكون زوجة للرسول ﷺ وأمًّا للمسلمين وتمكنت من تدبير شؤون نفسها، لقد أسلمت نفسها لله ابتغاء مرضاته، وللرسول ﷺ ابتغاء الصلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة ولسان حالها يقول: "لله در التقوى! ما تركت لي غيظ شفاء".. لقد هذبها الإسلام وسمت بما لها من فضائل وبمكانة أبيها ﵁ وحب النبي ﷺ لها وأبيها.

توالت المحن وعائشة المؤمنة صابرة محتسبة، تتذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل". ومضت الأيام وخرج النبي ﷺ في ذي الحجة من العام العاشر للهجرة قاصدًا الحج هو وزوجاته ومائة ألف من المسلمين، وخطب في الناس يعلمهم الإسلام وأركانه وبين لهم مناسك الحج. وجاء صفر من السنة الحادية عشر للهجرة وفي ليلة من لياليه، خرج النبي ﷺ في جنازة بالبقيع فأصابه شيء من نصب.

ذكر الزهري عن عائشة قالت: "دخل عليَّ رسول الله ﷺ وهو يصدع وأنا أشتكي رأسي، فقلت: وا رأساه، فقال: بل أنا والله يا عائشة وا رأساه. ثم قال ﷺ: وما عليك لو مت قبلي، فوليت أمرك وصليت عليك وواريتك، فقلت: والله إني لأحب أنه لو كان ذلك لقد خلوت ببعض

نسائك في بيتي آخر النهار فأعرست بها، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم تمادى برسول الله ﷺ وجعه فاستقر برسول الله ﷺ وهو يدور على نسائه في بيت ميمونة فاجتمع إليه أهله، فقال العباس: إنا لنرى برسول الله ﷺ ذات الجنب، فهلموا فلنلده، فلدوه، وأفاق رسول الله ﷺ، فقال: من فعل هذا؟ فقالوا: عمك العباس، تخوف أن تكون بك ذات الجنب، فقال النبي ﷺ: إنها من الشيطان وما كان الله ليسلطه عليَّ، لا يبقى في البيت أحد إلا لددتموه إلا عمي العباس. فلد أهل البيت كلهم حتى ميمونة، وإنها الصائمة يومئذ وذلك بعين رسول الله ﷺ، ثم استأذن النبي ﷺ نساءه يمرض في بيتي، فخرج رسول الله ﷺ إلى بيتي، وهو بين العباس وبين رجل آخر لم تمسه، تخط قدماه بالأرض إلى بيت عائشة".

قال عروة: "كانت عائشة تقول: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي توفي فيه: يا عائشة لم أزل أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان انقطاع أبهري من ذلك السم". وعن أبي سعيد الخدري قال: "خطب رسول الله ﷺ يومًا، فقال: "إن عبدًا خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار الرجل ما عند الله. فبكى أبو بكر، قال: فعجبنا لبكائه أن يخبرنا النبي ﷺ عن رجل يخير، فكان الخير رسول الله عليه وسلم، وكان أبو بكر أعلمنا به، فقال النبي ﷺ: لا تبك يا أبا بكر، إن أأمن الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذًا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن خلة الإسلام ومودته لا يبقى في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر".

وعن الفضل بن عباس قال: "أتاني رسول الله ﷺ وهو يوعك وعكًا شديدًا قد عصب رأسه فقال: خذ بيدي يا فضل. قال: فأخذت بيده حتى قعد على المنبر، ثم قال: ناد في الناس يا فضل، فناديت: الصلاة جامعة، قال: فاجتمعوا، فقام النبي ﷺ خطيبًا فقال: أما بعد، أيها الناس إن هقد دنا مني حقوق من بين أظهركم ولن تروني في هذا المقام فيكم، وقد كنت أرى أن غيره غير مغن عني حتى أقومه فيكم، إلا فمن كنت جلدت له ظهرا فها ظهري فليستقد، ومن كنت أخذت منه ملأًا فهذا مالي فليأخذ منه، ومن كنت شتمت له عرضا فها عرضي فليستقد، ولا يقولن قائل: أخاف الشحناء من قبل رسول الله ﷺ، ألا وإن الشحناء ليست من شأني ولا من خلقي، وإن من أحبكم إلى من أخذ حقًّا، إن كان له عليَّ وحللني، فلقيت الله عز وجل، وليست لأحد عندي مظلمة".

اشتد المرض برسول الله ﷺ، فأمر أبا بكر ليصل بالناس، ثم جاء النبي ﷺ فصلى خلف أبي بكر، وكانت آخر صلاة صلاها، وهي صلاة الصبح من يوم الاثنين. قال الواقدي: "سألت أبا بكر بن أبي سبرة كم صلى أبو بكر بالناس؟ قال سبع عشرة صلاة". وقال عائشة ﵂: "توفي رسول الله ﷺ في بيتي ويومي، وبين سحري ونحري، وكان جبريل عليه السلام يعوذه بدعاء إذا مرض، فذهبت أدعو به، فرفع بصره إلى السماء وقال: في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى. ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر وبيده جريدة رطبة، فنظر إليها، فظننت أن له بها حاجة. قالت: فاخذتها فنقضتها ودفعتها إليه، فاستن بها أحسن ما كان مستنًا، ثم ذهب يتناولها

فسقطت من يده. قالت: فجمع الله بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة".

السلام عليكم آل البيت ورحمة الله وبركاته. إن في الله خلفًا من كل هالك وعزاء من كل مصيبة ودركًا من كل فائت؛ فالمصاب جلل.. مات رسول الله ﷺ . قالت عائشة: "لما أرادوا غسل النبي ﷺ، قالوا: ما ندري أنجرده من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغسله وعليه ثوبه، فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم، حتى منهم رجل إلا ذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو، أن اغسلوا رسول الله ﷺ وعليه قميصه، يصبون الما ء فوق القميص ويدلكون بالقميص دون أيديهم، قالت عائشة: لو استقبلت من امرئ ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه".

وكفن ﷺ في ثلاثة أثواب سحولية ليس فيها قميص أو عمامة، وقد صلى عليه المسلمون. قال ابن عباس: "لما مات رسول الله ﷺ أدخل الرجال فصلوا عليه بغير إمام إرسالا حتى فرغوا، ثم أدخلت النساء فصلين عليه ثم أدخل الصبيان فصلوا عليه، ثم أدخل العبيد فصلوا عليه إرسالًا، لم يؤمهم على رسول الله ﷺ أحد". وقد دفن النبي ﷺ في موضعه الذي توفي فيه وهو أمر مجمع عليه، لقوله ﷺ: "ما مات نبي قط إلا دفن حيث يقبض". مات وعمره ثلاث وستين سنة، وفيه حسان بن ثابت ﷺ يقول:

بطيبــة رســم للرســـول ومعهــد ... منيــر وقــد تعفــو الرســوم وتمهــد

ولا تمحــى الآيات مــن دار حرمــة ... بها منبر الهادى الذي كان يصعد

وواضـــح آثـــار وبـــاقي معالـــم	وربـع لـه فيـه مصـلى ومسجـد
بهـا حجـرات كـان ينـزل وسطـها	مــن الله نــور يستضــاء ويوقــد
معارف لا تطمس على العهد أيها	أتاهـا البلـى فـالآي منهـا تجـدد
عرفـت بهـا رسـم الرسـول وعهـده	وقـبرا بــها واراه التــراب ملــحد

ذهب الحبيب وتوقف الكلام الدافق لحبيب حاضر، يتلهف قلبها لرؤيته وبقي الحنين إلى حبيب غائب لا تعلم متى الوصول إليه.

تجاوزت الصديقة ﵂ محنة موت النبي ﷺ، وتعلق قلبها بلواء الدعوة والعلم فحملت اللواء وسلكت كل درب فتضيئه بما تعلمت من الرسول ﷺ؛ لقد كانت أفقه وأعلم النساء، يتجه المسلمون إليها في سؤالهم بعد النبي ﷺ. وقد نهضت بأمانة التبليغ والتعليم أحسن نهوض؛ وفاءً لهذا الحبيب الغائب وابتغاء مرضاة الله، فما تورعت عن كتمان شيء. قال عروة لعائشة: "يا أمتاه لا أعجب من فقهك، أقول: زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنة أبي بكر الصديق، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، أقول: ابنة أبي بكر وكان من أعلم الناس". وكانت عائشة ﵂ فصيحة اللسان بليغة المقال، إذا حدثت ملكت على الناس مسامعهم، وإذا تكلمت أخذت بمجامع القلوب، فكانت لها كلمات مؤثرة وآثار بليغة.

ولما توفي أبو بكر الصديق ﵁، وقفت عائشة ﵂ على قبره، فقالت: "نضر الله وجهك يا أبتِ، وشكرا لك صالح سعيك؛ فلقد كنت

للدنيا مذلا بإدبارك عنها وللآخرة معزًّا بإقبالك عليها، ولئن كان أجل الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك وأعظم المصائب بعده فقدك، إن كتاب الله ليعد بحسن الصبر فيك وأستقضيه بالاستغفار لك. أما لئن كانوا قاموا بأمر الدنيا فلقد قمت بأمر الدين لما هي شعبة وتفاقم صدعه ورجفت جوانبه. فعليك سلام الله توديع غير قالية لحياتك ولا زارية على القضاء فيك".

وقيل: كان آخر ما تكلم به ﵁: "توفني مسلما وألحقني بالصالحين". ودفن بجوار رسول الله ﷺ، وأوصى بعمر من بعده. ودام في خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية، حتى طعن على يد أبي لؤلؤة المجوسي سنة ثلاث وعشرين من الهجرة.

عن عائشة ﵂ قالت: "لما قبض رسول الله ﷺ ارتد العرب قاطبة وإشرأب النفاق". وذكر الزهري، قال: "قلت لسعيد بن المسيب: هل أنت مخبري كيف قتل عثمان؟ ما كان شأن الناس وشأنه؟ ولم خذله أصحاب مُحَمَّد ﷺ. فقال: قُتل عثمان مظلومًا ومن قتله كان ظالمًا ومن خذله كان معذورًا". دبت الفتنة وكانت المقتلة وخروج على الإمام. أي طريق يسلكون وهم يكسرون عصا الطاعة. قتل عثمان وهو صائم ودمه يسيل على المصحف. قام أعداء الإسلام بتدبير الدسائس وأشعلوا نار الفتنة حتى انقسم أمرالمسلمين.

وفي وسط الفتن أرادت عائشة ﷺ إيقاع القصاص في قتلة عثمان، حتى لا يكون قتل الحكام والأمراء سنة في أيدي العامة من الناس بدون حجة أو دليل أو برهان من الله، ولبى هذه الدعوة أمهات المؤمنين وآزرها في المطالبة بدم عثمان وإنزال العقوبة بقتلته وحملت عائشة ﷺ في هودج قد غطى بدروعٍ من حديد في طريقها حيث قتلة عثمان، فلم تكن في ذلك تريد حربًا ولا قررت خوض حرب، ولم تكن تشعر تجاه علي كرم الله وجهه عداوة أو خصومة، وحسبنا أن نقرأ هذه الكلمات التي رواها أبو عبد الرحمن الأزدي قال: "لما انقضى الجمل قامت عائشة فتكلمت، فقالت: أيها الناس.. إن لي عليكم حرمة الأمومة وحق الموعظة، لا يتهمن إلا من عصى ربه، قُبض رسول الله ﷺ بين سحري ونحري، وأنا إحدى نسائه في الجنة، ادخرني ربي وخصني من كل بضاعة وبي ميز مؤمنكم من منافقكم وبي رخص لكم في صعيد الإقراء، أبي رابع أربعة من المسلمين وأول من سُميَ صديقًا، قبض الرسول ﷺ وهو عنه راضٍ فتطوقه واهق الإمامة، ثم اضطرب حبل الدين فأخذ أبي بطرفيه، فرقد النفاق وغاض نبغ الردة وأطفأ ما حشت يهود وأنتم حينئذ جحظ تنتظرون العدوة وتستمعون الصيحة فرأب الثأي وأوزم السقاء وامتاح من المهواة واجتهز الرواء، فقبضه الله وأطفأ على هامة النفاق، مذكيًا نار الحرب للمشركين يقظان في نصرة الإسلام صفوحًا عن الجاهلين".

وعلى الرغم من كونها لم تكن تريد فيما حدث من أدوار الفتنة ويوم الجمل إلا صالح الإسلام والمسلمين، فقد ظلت هذه الحادثة تؤرق السيدة عائشة ﷺ طيلة ما تبقى من حياتها، ما ندمت على شيء إلا على وقوفها

هذا الموقف. قالت عائشة: وكانت تحدث نفسها أن تدفن في بيتها، فقالت: إني أحدثت بعد رسول الله ﷺ حدثًا. تعني به مسيرها يوم الجمل. ادفنوني مع أزواجه، فدفنت بالبقيع رضي الله عنها. ويقول الذهبي: "إنها ندمت ندامة كلية وتابت من ذلك، على أنها ما فعلت ذلك إلا متأولة قاصدة الخير، كما اجتهد طلحة بن عبد الله والزبير بن العوام وجماعته من كبار الصحابة رضي الله عنهم.. فكلما تذكرته قالت: يا ليتني مت قبل الجمل".

اشتاقت أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما إلى رفيق دربها ﷺ، وهفا قلبها إلى الأحبة الذين سبقوها إلى الدار الآخرة، وتوعكت فلزمت الفراش واشتد عليها المرض، فاستأذن ابن عباس، فأذنت له، فدخل عليها قبيل موتها وعند رأسها ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن، فقال لها: أبشري. قالت: بم؟ قال: ما بينك وبين أن تلقي محمدًا ﷺ والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، كنت أحب نساء رسول الله ﷺ إلى الله ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيبًا وسقطت قلادتك ليلة الأنواء، فأصبح رسول الله ﷺ ليطلبها حين يصبح، فأصبح الناس ليس معهم ماء، فأنزل الله "فتيمموا صعيدًا طيبًا" فكان ذلك من سبيلك، وما أذن الله لهذه الأمة من الرخصة فأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات جاء بها الروح الأمين، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله يذكر فيه إلا هي تتلى فيه آناء الليل والنهار. فقالت: دعني منك يا ابن عباس فوالذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسيا منسيا".

ماتت عائشة في السابع عشر من رمضان سنة ثمان وخمسون للهجرة بعد الوتر، فأوصت بدفنها ليلا فاجتمع الأنصار وحفروا، فلم تر ليلة أكثر ناسًا منها ودفنت بالبقيع، ونزل قبرها خمسة، هم: عبد الله بن الزبير وأخوه عروة ابنا أسماء أختها، وعبد الله ابن أخيها عبد الرحمن، والقاسم وعبد الله ابنا مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن أبي بكر.

قال رسول الله ﷺ: "فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"، وقال ﷺ: "كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام".

وعن عائشة: "أنها جاءت هي وأبواها، فقالا: إنا نحب أن تدعو لعائشة بدعوة ونحن نسمع، فقال ﷺ: اللهم اغفر لعائشة بنت أبي بكر الصديق مغفرة واجبة ظاهرة باطنة. فعجب أبواها، فقال: أتعجبان، هذه دعوتي لمن شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله".

رحم الله أم المؤمنين العفيفة الطاهرة عائشة بنت الصديق، نعم الزوجة والرفيقة، راجحة العقل وأعلم النساء بما أنزل الله على لسان رسوله الكريم، عاشت حياة مديدة لا يشغلها سوى الله ورسوله والإسلام، ورحلت عن الدنيا مخلفة لنا سيرة عطرة تهفو إليها الأسماع والقلوب.

أم الحسنين " فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم "

هي سيدة نساء العالمين، بنت سيد الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي القاسم مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب به هاشم بن عبد مناف القرشية الهاشمية، وأم الحسنين، كانت تكنى "أم أبيها". وكان مولدها قبل البعثة بقليل. أمها خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشية الأسدية. وهي زهرة آل مُحَمَّد ﷺ.

ولدت أم الحسنين في يوم تجديد الكعبة، فكان يوم بشر وسعادة عند رسول الله ﷺ، وكان الأمين حكمًا بين قبائل قريش فيما اشتجر بينهم من خلاف على الحجر الأسود. وقضت فاطمة السعيدة الزهراء حياتها وهي صغيرة في كنف أبوين عظيمين، عقمت الأرحام أن تأتي بمثلهما، تزوجت أختها الكبرى زينب من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع ومن بعدها تزوجت رقية وأم كلثوم، فأصبحت فاطمة كأنها وحيدة لرحيل شقيقاتها، ومضت رغم صغر سنها مع خواطرها تتأمل حياتها وسعة الكون من حولها وبقيت تتأمل وقد بعث النبي ﷺ وكان الأمر شاقًّا عليه؛ إذ تعرض للإيذاء والاستهزاء وعودي من قبائل قريش إلا نفرًا قليلا من المستضعفين، فشهدت المشاهد كلها.

وعاصرت فاطمة الزهراء ﵂ حصار قريش للمسلمين وهي صغيرة، فتحملت الإيذاء والجوع دون خوف أو تهاون وخرجت مناالحصار فرحة

كسائر المسلمين حتى جاء اليوم الذي عظم الأمر فيه على رسول الله ﷺ وعلى ابنته الزهراء بموت أبي طالب ومن بعده خديجة، وقد واصلت قريش أذاها حتى نثر بعضهم التراب على رأسه وحتى أن بعضهم طرح عليه رحم الشاة وهو يصلي، فرجع بيته فأتته فاطمة تمسح عن وجهه ورأسه وهي تبكي، فجعل يقول: "أي بنية، لا تبكين فإن الله عزو جل مانع أباك، ويقول ما بين ذلك: اللهم عليك بهذا الملأ من قريش وكان عددهم سبعة يومئذ. يقول ابن مسعود: فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر جميعا".

فاطمة سيدة فتيات قريش وسيدة بيت النبوة قد أتمت خمسة عشر عامًا وصارت تعتني بشؤون أبيها، تخفف عنه ما يلاقيه من عناء وتعب في دعوته وتمسح عنه آلامه ﷺ؛ حتى أطلق عليها "أم أبيها" لشدة تعلقها برسول الله ﷺ وحبه العميق لها وسعيها تعويضه ما فقده من المنعة والرفقة الطيبة والزوجة الحكيمة. لقد نضجت مبكرًا وصارت تتواصل معه في شؤونه وشؤون المسلمين رغم صغر سنها.

عن عبد الله بن عمير قال: "وجد رسول الله ﷺ على خديجة حتى خشي عليه حتى تزوج عائشة، وكان ﷺ كثيرا ما يذكرها بعد وفاتها ويترحم عليها، وكانت فاطمة كثيرا ما تذكر أمها وتعيد حديث الذكريات مع أبيها، حتى سألته يومًا قالت: قلت: يا رسول الله أين أمي خديجة؟ قال: في بيت من قصب، قلت: أمن هذا القصب؟ قال: لا، من القصب المتطوع بالدر واللؤلؤ والياقوت".

ظلت فاطمة تتحمل الآلام والمحن، حتى أذن الله لرسوله بالهجرة إلى يثرب وتخلفت فاطمة وأختيها ـ رقية وأم كلثوم ـ وسودة بنت زمعة زوجة رسول الله في بيت النبي ﷺ، وعائشة وأختها أسماء ابنتا أبي بكر، وتخلف معها علي بن أبي طالب وطلحة بن عبد الله وعبد الرحمن بن أبي بكر، حتى أذن رسول الله ﷺ لهم بالقدوم إلى المدينة. وقد أرسل إليهم زيد بن حارثة ومعه أبو رافع مولاه.

قدمت فاطمة إلى المدينة واستقبلها رسول الله ﷺ فرحًا بقدومها.. فاطمة ينبوع الحب في قلب أبيها.. كانت في عين أبيها مثل "مريم البتول".. أفضل النساء.. منقطعة للعبادة طائعة لربها ولرسوله، تشارك المسلمين أفراحهم وأحزانهم حتى غذا جاء يوم الفرقان، فكانت الفرحة عارمة لجند الله في الأرض، يسقطون طواغيت الزمان ويهزمون جيوشهم وآلاتهم الحربية، فيهزم الشيطان في أول معركة يلتقي فيها الحزبان، حزب الله بقيادة مُحَمَّد ﷺ، وحزب الشيطان بقيادة أبي جهل وسادات قريش "إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان".

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد بدر لتعم الفرحة أرجاء المدينة وتسكن جراح الماضي؛ فلقد انتصروا بعد ظلم ورفرفت أعلام الإيمان عالية خفاقة وانتكست أعلام الكفر وسحق إبليس وجنده، ألا إن حزب الله هم الغالبون.. عادت الفرحة، وما إن عادت حتى شابها الحزن في بيت رسول الله ﷺ، فقد ماتت رقية ابنة رسول الله وأخت فاطمة وزوجة عثمان بن

عفان سيد شباب بني أمية، بعد رحلة طويلة قضتها في طريق الإسلام رضي الله عنها، فحزنت فاطمة على فراق رقية وخفف عنها النبي صلى الله عليه وسلم أحزانها، وقد عزم على أن يزوج أختها أم كلثوم لعثمان بن عفان؛ حتى يطوي الجراح لينال ذو النورين عثمان بن عفان ﷺ شرف مصاهرة النبي ﷺ في ابنتيه.

بلغت فاطمة الثامنة عشرة من عمرها وكانت جميلة ورعة تقية طاهرة، فهي الحسيبة النسيبة، فتسارع كبار الصحابة للتقدم لخطبتها من أبيها، إذ تقدم لخطبتها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "غنها صغيرة"، فخطبها وكان فقيرا علي فزوجها منه". وقد كان يناهز الرابعة والعشرين من عمره.

وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال له: "انطلق وادع لي أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير، وبعض الأنصار. قال: فانطلقت فدعوتهم، فلما أخذوا مجالسهم، قال ﷺ: الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته المطاع لسلطانه، المهرب إليه من عذابه، النافذ أمره في أرضه وسمائه الذي خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه. إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسبًا لاحقًا وأمرًا مفترضًا، وحكمًا عادلًا وخيرًا جامعًا أو شح بها الأرحام وألزمها الأنام، فقال عز وجل: "وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبًا وصهرا وكان ربك قديرًا"، وأمر الله يجري إلى قضائه وقضاؤه يجري إلى قدره ولكل أجل كتاب "يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب"، ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من علي وأشهدكم أني

زوجت فاطمة من علي على أربعمائة مثقال فضة، إن رضي بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة، فجمع شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

قال أنس: وكان علي غائبًا في حاجة لرسول الله ﷺ قد بعثه فيها، ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا، فقالوا: انتبهوا، فبينما نحن كذلك إذ أقبل علي، فتبسم له النبي ﷺ، وقال: يا علي، إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة، وإني زوجتكما على أربعمائة مثقال فضة. فقال علي: رضيت يا رسول الله. ثم إن عليًّا خر ساجدًا شكرا لله، فلما رفع رأسه قال رسول الله ﷺ: بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما، وأخرج منكما الكثير الطيب".

قال الزهري: "تزوج علي بن أبي طالب فاطمة بنت رسول الله في رجب بعد مقدم رسول الله ﷺ المدينة بخمسة أشهر، وبني بها مرجعه من بدر، وفاطمة يوم بني بها علي بنت ثمان عشرة سنة".

زفت فاطمة إلى علي، فباع علي بعيرًا له وبعض متاعه فبلغ أربعمائة وثمانين، فقال النبي ﷺ: "اجعل ثلثين في الطيب وثلثًا في المتاع". وما كان يملك علي رضي الله عنه سوى درع الحطمية التي منحها إياها رسول الله ﷺ فأصدقها فاطمة وتزوجها، فلما كان بعدما زوجه، قال: يا علي إنه لابد للعروس من وليمة. فقال سعد عندي كبش، جمع له رهط من الأنصار

أصعًا من ذرة فلما كانت ليلة البناء، قال: لا تحدث شيئا حتى تلقاني. قال: قدم رسول الله بإناء فتوضأ فيه ثم أفرغه على علي، ثم قال: "اللهم بارك عليهما وبارك لهما في نسلهما".

وعن عامر قال: "قال علي: لقد تزوجت فاطمة وما لي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل، ونعلف عليه الناضح بالنهار، وما لي ولها خادم غيرها". وقد كان زفافًا مباركًا هادئًا، انتقلت فيه العروس إلى بيت زوجها. ولم يكن مترفًا ولا ناعمًا، بل كان أقرب إلى الخشونة والتقشف؛ فلم يكن عليًّا ذا حظ فهو يعمل بالأجر. وقد تحدثت أم أيمن ﵂ تعدد أثاث فاطمة وما حمل لها من جهاز، قالت: "كان جهازها خملة ووسادة أدم حشوها ليف ورحايتين وسقاء وجرتين".

من أول يوم وطئت فيه فاطمة منزل زوجها، أحست أن عليها واجبًا كبيرًا إزاء زوجها كما علمها النبي ﷺ؛ فهي تعلم حقيقة دخله فانتظمت حياتها على نمط من الزهد وخشونة العيش في رضا لا يشوبه جزع، فكانت حياتها سعيدة مليئة بحب دافئ لزوجها رغم الشظف والفاقة تعتز بنفسها وبحب أبيها لها. وقد زارها الحبيب ﷺ يومًا وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل، فبكى وقال: "تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة". لقد تعلمت الزهراء في دار أبويها ما لم تتعلمه امرأة غيرها، ووعت كل ما وعته امرأة ذات دين تعلم حقوق ربها وكذلك حقوق زوجها.

يقول علي كرم الله وجهه: "لم يكن لنا خادم يخدمنا، فطحنت فاطمة بالرحى حتى ملجت يداها، وقامت بالبيت حتى أغبرت ثيابها. وكان علي يسقى الماء بدلا من أمه حتى سنا صدره وأصيب في رئتيه، فطلب علي من فاطمة أن تسأل رسول الله ﷺ خادمًا، فلما أتته، قال النبي ﷺ: ما جاء بك يا بنية؟ قالت: جئت لأسلم عليك واستحيت أن أسأله ورجعت، فأتاها رسول الله من الغد، فقال: ما كانت حاجتك؟ فسكتت، فقال علي: والله يا رسول الله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وهذه فاطمة قد طحنت حتى ملجت يداها، فقال النبي ﷺ: لا والله، لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيع وأنفق عليهم بالثمن. فرجعا إلى منزلهما فأتاهما رسول الله ﷺ ليخفف عنهما عناءهما، وقال لهما برفق وحنان: ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟ قالا: بلى. فقال: كلمات علمنيهن جبريل: تسبحان الله دبر كل صلاة عشرًا وتحمدان عشرًا وتكبران عشرًا، وإذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثة وثلاثين وتحمدان ثلاثة وثلاثين وتكبران ثلاثة وثلاثين. يقول علي: فما تركتهن مذن علمنيهن رسول الله ﷺ".

مضى رسول الله ﷺ وقد زودهما بهذا المدد الإلهي ليترك منزل الحبيبين وقد دخلت السعادة قلبيهما، نعم الأب الحنون والمربي الفاضل. غير أن الأمور في بيت فاطمة سارت كشان سائر البيوت، لا تخلو من الخلافات. ويدخل النبي ﷺ ليكون حكمًا ومصلحًا؛ فهي حبيبة القلب وهو أحب الناس إليها. وفي ذات يوم ضاقت فاطمة من شدة علي، فقالت: والله لأشكونك إلى رسول الله ﷺ، فانطلقت، وانطلق علي على

إثرها، فقام حيث يسمع كلامها، فشكت إلى رسول الله ﷺ غلظ علي وشدته عليها، فقال: يا بنية اسمعي واستمعي واعقلي، إنه لا إمرة بامرأة لا تأتي هوى زوجها وهو ساكت. قال علي: فكففت عما كنت أصنع، وقلت: والله لا آتي شيئًا تكرهينه أبدا. فرضيت فاطمة وسكنت وعادت مع زوجها.

وطن علي نفسه على احتمال ما كانت تأتيه مما لم يوافق هواه وهدأت العاصفة في بيت فاطمة، غير أنها ما لبثت أن عادت، إذ أنه لم ينجز وعده وطلب الزوجة الثانية كعادة قومه في الجمع بين الزوجين وما أباحه الإسلام من تعدد الزوجات. أراد مصاهرة بنت أبي جهل، ووصل الخبر إلى مسامع فاطمة فانكسر قلبها وغضبت واتجهت إلى رسول الله ﷺ. وقد كان النبي ﷺ يحبها ويكرمها ويسر إليها، فلما اشتكت إليه، غضب لها النبي ﷺ وقال: "والله لا تجتمع بنت نبي الله وبنت عدو الله، وإنما فاطمة بضعة مني، يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها".

ترك علي الخطبة رعاية لها ومراعاة لغضب النبي ﷺ الذي لا يحرم حلالًا ولا يحل حرامًا ولكن خشي على ابنته الفتنة، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم صهره أبا العاص، وهو من بني عبد شمس لا من عبد المطلب كعلي، فأثنى عليه في مصاهرته إياه أحسن الثناء، وقال: "حدثني فصدقني، ووعدني فأوفى لي".

يكاد قلب الزهراء يكسر بخبر زواج علي من بنت عدو الإسلام، فتبكي وتشتكي لأبيها، فيغضب ﷺ لغضبها. وعلي يشعر بفعلته تجاه فاطمة، فيهمس إليها وهي تبكي معتذرا: "هبيني أخطأت في حقك يا فاطمة، فمثلك أهل للعفو والمغفرة.. ومضت قطعة من الليل قبل أن تجيب غفر الله لك يا ابن العم.. فلثم أطراف أناملها، وراح يروي لها ما كان من حديث المسجد ويصف لها مشاعره حين سمع ابن عمه يتحدث عن ضيقه بالأذى يلحق ابنته فاطمة وإنكاره أن يتزوج علي من بنت أبي جهل مع الزهراء، وقسمه ألا يجمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله ببيت واحد أبدًا. واغرورقت مقلتا فاطمة بالدموع تأثرًا بحب أبيها وانفعالا بموقفه، ثم قامت للصلاة".

زال الهم وذهب الحزن وارتفع الجرح عن بيت زهراء العرب ولم تمضي أشهر حتى جاءت بحفيد رسول الله ﷺ، فقد وضعت الزهراء في النصف من رمضان سنة ثلاث من الهجرة غلاما زكيا، كان أشبه الناس بجده صلى الله عليه وسلم. وسعى البشير إلى أبيها بالنبأ السعيد، فخف إليها متشوًقا فرحًا وحمل وليدهما بين ذراعيه وتلا الآذان في مسمعه. يقول علي بن أبي طالب: "كنت رجلا أحب الحرب، فلما ولد الحسن، هممت أن أسميه حربًا، فقال ﷺ: بل هو الحسن". وقد احتفلت المدينة بمولد الحسن حفيد النبي ﷺ وتصدق النبي ﷺ على الفقراء من أهلها بزنة شعره فضة، فسعدت حياة رسول الله ﷺ ثم أتى في العام الرابع الحسين، وفي العام الخامس جاءت زينب، وبعد عام أو عامين أنجبت أم كلثوم.

عن أسامة بن زيد قال: "طرقت باب النبي ﷺ في بعض الحاجة، فخرج رسول الله ﷺ وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو، فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه يا رسول الله؟ فكشفه، فإذا الحسن والحسين، وقال: هذان ابناي وابنا ابنتي، اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهم". وعن واثلة بن الأسقع أنه قال: "لقد رأيتني ذات يوم وقد جئت النبي ﷺ في بيت أم سلمة، فجاء الحسن فأجلسه على فخذه اليمنى وقبله، ثم جاء الحسين فأجلسه على فخذه اليسرى وقبله، ثم جاءت فاطمة فأجلسها بين يديه، ثم دعا عليًّا، ثم قال: "يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب".

ظلت فاطمة أم أبيها تنعم بحياة دافئة سعيدة في ظل أعظم قلبين؛ قلب رسول الله ﷺ وهو الحبيب، وقلب زوجها المحب، فسكنت جوارحها وباتت تنعم بدفء الحياة الأسرية، حتى طلبها النبي ﷺ في مرضه فأسرعت فاطمة إليه. عن عائشة ﵂ قالت: "بينما كل أزواج النبي ﷺ عنده لم تغادر منهم واحدة، فأقبلت فاطمة تمشي ما تخطى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئًا، فلما رآها رحب بها، فقال: مرحبا يا ابنتي، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارها فبكت بكاءً شديدًا، فلما رأى جزعها سارها الثانية، فضحكت. فقلت لها: خصك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسرار ثم أنت تبكين؟ فلما قام رسول الله ﷺ قلت سألتها ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما كنت أفشي على رسول الله سره، قالت: فلما توفي النبي ﷺ قلت: عزمت بما لي عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله ﷺ. فقالت: أما الآن فنعم. أما حين سارني في المرة الأولى

فأخبرني أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة أو مرتين، وأنه عارضه الآن مرتين وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك. قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارني ثانية، فقال: يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة؟ قالت: فضحكت ضحكي الذي رأيت".

اشتد الوجع برسول الله ﷺ.. فأقامت إلى جانبه تخدمه وتسهر عليه متجلدة بالصبر، ولكن الصبر قد نفد عندما تثاقلت قدما رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأته يأخذ الماء بيده وتجعله على رأسه وهو يقول: "واكرباه". فردت فاطمة بصوت متقطع يقطع الأفئدة ويدمي القلوب: وا كربي لكربك يا أبتاه. فيرد النبي ﷺ وهو ينظر إليها وعيناه تذكرها الوصية: لا كرب على أبيك بعد اليوم. وبلغ الكتاب أجله. مات رسول الله ﷺ.. فبكت فاطمة كما تبك من قبل، وقالت:

يا أبتاه من ربه ما أدنـــاه

يا أبتاه جنة الفردوس مأواه

يا أبتاه إلى جبريل أنعـــاه

يا أبتاه أجاب ربا دعـــاه

فلما دفن الرسول ﷺ، قالت: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟

بكت أم الحسنين وبكى المسلمون جميعًا نبيهم ﷺ، وذكروا قوله تعالى: "وما مُحَمَّد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفأين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين" وقوله تعالى: "إنك ميت وإنهم ميتون"، وقوله تعالى: "كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون"، وقوله تعالى: "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"، وقوله تعالى: "كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور".

عن أم سلمة قالت: "بينما نحن مجتمعون نبكي لم ننم، ورسول الله ﷺ في بيوتنا ونحن نتسلى برؤيته على السرير، إذ سمعنا صوت الكرارين في السحر. قالت أم سلمة: فصحنا وصاح أهل المسجد، فارتجت المدينة صيحة واحدة، وأذن بلال الفجر، فلما ذكر النبي ﷺ بكى وانتحب، فزادنا نحوبًا وعالج الناس الدخول إلى قبره فغلق دونهم، فيا لها من مصيبة ما أصبنا بعدها بمصيبة إلا هانت، إذا ذكرنا مصيبتنا به صلى الله عليه وسلم".

وري النبي ﷺ الثرى، واختيار أبا بكر خليفة لرسول الله ﷺ وللمسلمين. وقد بويع على ذلك من جميع الصحابة، عدا عليًّا فقد تأخر

لانشغاله مع آل بيت رسول الله في مصابهم، وأمسكت فاطمة صامتة لا تعقب عما يدور حولها، إلا أنها سألت أبا بكر عن ميراثها في أبيها بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فرد أبو بكر عليها بقوله ﷺ: "نحن ـ معشر الأنبياء ـ لا نورث؛ ما تركناه فهو صدقة". وقال: أنا أعول من كان يعول رسول الله ﷺ، والله لقرابة رسول الله أحب إلي أن أصل قرابتي". وعن الشعبي قال: "لما مرضت فاطمة، أتاها أبو بكر الصديق فاستأذن عليها، فقال علي، يا فاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليك؟ فقالت: أتحب أن آذن له؟ قال: نعم، فأذنت له فدخل عليها يترضاها، فقال: والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ورسوله ومرضاة أهل البيت، ثم ترضاها حتى رضيت".

أمسكت فاطمة رضي الله عنها عن الدنيا وجعلت من الحزن خيمة لها بعد فراق الأحبة، فلم يبق للزهراء إلا خروج الروح من الجسد لتلقى حبيبها، فما أشد الفراق ولوعته. أليس هو بشرها حين سرها، فقال: "أنت أسرع أهلي لحوقًا بي". اشتد المرض على أم الحسنين وأحسن أنها مقبوضة اليوم، فأخذت تنظر إلى من حولها مودعة، وقالت قبيل وفاتها لأم رافع مولاة رسول الله ﷺ، يا أمة اسكبي لي غسلا فسكبتها، فاغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل، ثم قالت: ائتيني بثيابي الجدد، فأتتها به، فلبستها ثم قالت: يا أمة إني مقبوضة الساعة، وقد اغتسلت فلا يكشفن لي أحد كفنًا".

توفيت رضي الله عنها، وهي ابنة تسع وعشرين سنة أو نحوها. وكانت وفاتها رضي الله عنها بعد أبيها بنحو ستة أشهر أو نحو ذلك، فكانت أول من لحق برسول

الله ﷺ من أهل بيته، ثم توفيت بعدها أم أيمن بركة بنت ثعلبة حاضنة رسول الله ثم أم المؤمنين زينب بنت جحش ﵄ جميعا.

حضر وفاة أم الحسنين علي وأسماء بنت عميس زوجة أبي بكر وسلمى أم رافع مولاة رسول الله ﷺ وصلى عليها علي، وقيل أبو بكر الصديق ودفنت ليلا في البقيع. ونزل العباس وعلي والفضل بن العباس في حفرتها. وحزن المسلمون على مصاب آل بيت النبي ﷺ وعلى مصاب علي كرم الله وجهه، وارتجت المدينة بالبكاء؛ فقد جددت الزهراء ذكرى وفاة رسول الله ﷺ.

هي سيرة عطرة لبضع من رسول الله ﷺ، تبكي العيون على فراقها وتشتاق دومًا إلى ذكراها. لقد أخذت الزهراء مكانتها بين أعلام النساء وسطرت سيرتها العطرة بين الخالدات، لأنها بنت النبي وزوجة فارس الإسلام والعرب الإمام علي كرم الله وجهه وأم الحسنين سيدا الشهداء وشباب أهل الجنة. عن أنس أن النبي ﷺ قال: "حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت مُحَمَّد وآسية امرأة فرعون".

لقد أحب النبي ﷺ أم الحسنين وكرمها؛ فقد كانت صابرة دينة خيرة قانعة شاكرة لله، كانت أول من لحق به من بيت النبوة، فسلام على آل بيت الرسول الكريم ﷺ وسلام على الزهراء أم أبيها وأم الحسنين وزهرة بيت النبوة وزوجة من كرم الله وجهه وأعز به الإسلام والمسلمين.

ولله در العلامة "مُحَمَّد إقبال" القائل في مدحها:

والمجد يشرق من ثلاث مطالع ... في مهد فاطمة فما أعلاها

هي بنت من؟ هي زوج من؟ هي أم من؟ ... من ذا يداني في الفخار أباها

هي ومضة من نور عين المصطفي ... هادي الشعوب إذا تروم هداها

هو رحمة للعالمين وكعبة الآ ... مال في الدنيا وفي أخراها

من أيقظ الفطر النيام بروحه ... وكأنه بعد البلى أحياها

وأعاد تاريخ الحياة جديدة ... مثل العرائس في جديد حلاها

ولزوج فاطمة بسورة هل أتي ... تاج يفوق الشمس عند ضحاها

أسد بحصن الله يرمي المشكلات ... بصقيل يمحو سطور دجاها

إيوانه كوخ وكنز ثرائه ... سيف غدا بيمينه تياها

في روض فاطمة نما غصنان لم ... ينجبهما في النيرات سواها

فأمير قافلة الجهاد وقطب دائرة ... الوئام والاتحاد ابناها

حسن الذي صان الجماعة بعدما ... أمسى تفرقها يحل عراها

ترك الخلافة ثم أصبح في الديار ... أمام ألفتها وحسن علاها

وحسين في الأحرار والأبرار ما ... أزكى شمائله وما أنداها

فتعلموا رأي اليقين من الحسين ... إذا الحوادث أظلمت بدجاها

وتعلموا حرية الإيمان من ... صبر الحسين وقد أجاب نداها

الأمهات يلدن للشمس الضياء ... وللجواهر حسنها وصفاها

ما سيرة الأبناء إلا الأمهات ... فهم إذا بلغوا الرقى صداها

هـــي أســـوة لـلأمهـــات وقـــدوة يترســـم القمــر المنــير خطاهـــا

نـــور تهـــاب النـــار قـــدس جـــلاله ومـنى الكواكـب أن تنـال رضاهـــا

جعلــت مــن الصــبر الجميــل غذاءهـــا ورأت رضـى الـرزوج الكـريم رضـاها

فمهـــا يـــردد ذكـــر ربـــك بينـمـــا يـدها تـدير على الشعيــر رحاهـــا

بلـــت وسادتـــها لآلـــئ دمـهـــا من طـول خشيتها ومــن تقواهـــا

لـــولا وقـــوفي عنـــد امـــر المصـــطفي وحـــدود شرعتـــه ونحـــن فداهـــا

لمضـــيت للطـــواف حـــول ضـــريحها وغمـرت بالقبـلات طيـب ثراهـا

.

عقيلة بنى هاشم "زينب بنت علي بن أبي طالب"

ولدت زينب بنت علي بن أبي طالب (٥هـ - ٦٢٧م) المدينة المنورة- ثالث أبناء فاطمة الزهراء وبنت علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - رابع الخلفاء الراشدين.

في صفحات التاريخ خط ذاك الاسم المعطر بأريج الشهادة والتضحية، فبقيت الحروف خالدة في مقدمة الصحف، ورغم ما جرى، إلا أنه لم يجرأ أحد ويمحي هذا الاسم. (إنها زينب) الهاشمية القرشية حفيدة النبي ﷺ، وابنة فاطمة بنت مُحَمَّد وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهما.

هناك قولان في معنى كلمة زينب. الأول أن "زينب" كلمة مركبة من زين وأب. أما الثاني فهو أن "زينب" كلمة بسيطة وليست مركبة وهي اسم لشجرة أو وردة. وهذا ما صرح به مجد الدين الفيروزآبادي في القاموس المحيط، بقوله: "الزَّيْنَبُ: نبات عشبيٌّ بصليّ معمّر من فصيلة النرجسيات، أزهاره جميلة بيضاء اللون فوّاحة العرف وبه سُمِّيت المرأة".

تُكنى زينب بـ"أم الحسن" و"أم كلثوم". ومن المشهور وجود بنتين لعلي بن أبي طالب من زوجته فاطمة الزهراء، هما زينب وأم كلثوم.

جاء التعبير عن زينب في بعض المصادر التاريخية وعلى لسان بعض الخطباء والمؤلفين بـ"العقيلة"، والعقيلة وصف لها وليس اسمًا، فيقول أبو

الفرج الأصفهاني: "العقيلة هي التي روى ابن عباس عنها كلام فاطمة في فدك، فقال: حدثتنا عقيلتنا زينب بنت علي".

وللعقيلة معانٍ عديدة في اللغة، فمنها: المرأة الكريمة، والنفيسة، والمُخَدَّرة. يقول ابن منظور في لسان العرب: "عقيلة القوم: سيدهم، وعقيلة كل شيء: أكرمه". كما يقول الفيروزآبادي في القاموس المحيط: "العَقِيلَةُ: الكريمة من النساء.– الرجل: زوجته، تستعمل في المواقف الرسمية بخاصة؛ وجَّه الرئيس وعقيلتُه الدعوةَ إلى رئيس الدولة الصديقة وعقيلته: سيِّد القوم؛ كان عقيلةُ القبيلة كبيرَها سنًّا وعقلًا. جمع عقائل".

كما انتشر عدد من الألقاب لزينب، منها: زينب الكبرى، للفرق بينها وبين من سميت باسمها من أخواتها وكنيت بكنيتها الحوراء، أم المصائب وسُمّيت أُمّ المصائب، لأنّها شاهدت مصيبة وفاة جدّها مُحَمَّد رسول الإسلام، ومصيبة وفاة أُمّها فاطمة الزهراء وقتل أبيها علي بن أبي طالب، ومصيبة شهادة أخيها الحسن بن علي بالسمّ، والمصيبة العظمى بقتل أخيها الحسين بن علي من مبتداها إلى منتهاها وقتل ولداها عون ومُحَمَّد مع خالهما أمام عينها وحملت أسيرة من كربلاء إلى الكوفة وأدخلت على ابن زياد إلى مجلس الرجال وقابلها بما اقتضاه لؤم عنصره وخسة أصله من الكلام الخشن الموجع وإظهار الشماتة وحملت أسيرة من الكوفة إلى الشام ورأس أخيها ورؤوس ولديها وأهل بيتها أمامها على رؤوس الرماح طول الطريق حتى دخلوا دمشق على هذا الحال وأدخلوا على يزيد في مجلس الرجال

وهم مقرنون بالحبال. وكذلك سميت الغريبة، العالمة غير المعلمة، الطاهرة، السيدة.

نشأتها:

نشأت زينب عقيلة بني هاشم في بيت تشعل فيه قناديل الرحمة والسكينة بين (فاطمة بنت مُحَّمد وعلي بن أبي طالب).. بيت عماده التقوى والإيمان، فكان تأثيره قويا على نشأة الأبناء.

كان لوفاة الرسول ﷺ وزينب لم تكن قد تجاوزت الخامسة ثم تبعته أمها الزهراء فاطمة، فلحقت بأبيها سيد الخلق بعد ستة أشهر وقيل ثلاثة، أثر عظيم في تحول حياة زينب رغم صغرها وهي تصغي يومئذ إلى أبيها وقد تمهل عند قبر الزهراء يندبها مودعًا: "السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك. قَل يا رسول الله عن صفيتك صبري ورق عنها تجلدي إلا أن لي في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعزٍ. إنا لله وإنا اليه راجعون، فلقد استُرجعت الوديعة وأُخذت الرهينة. أما حزني، فسرمد. وأما ليلي، فمسهد إلى أن يختار الله أي دارك التي أنت بها مقيم والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سئم. فإن انصرف فلا عن ملالة وإن أُقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين". وقد أوصت الزهراء رحمها الله تعالى ـ ابنتها زينب أن تصحب أخويها وترعاهما وتكون لهما من بعدها أمًّا.

وهكذا شغلت ـ زينب عليها السلام ـ مكان الأم ولما تبلغ العاشرة من عمرها؛ فقد أنضجتها الأحداث وهيأتها لأن تشغل مكان الراحلة الكريمة، فتكون أمًّا للحسن والحسين وأم كلثوم وهي أم لا تعوزها عاطفة الأمومة بكل ما فيها من حنو وإيثار، وإن أعوزتها التجربة والاختيار.

زواجها:

كان علي بن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ يرفض كل المتقدمين لزواجها، ولكن لما تقدم عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وافق على نسبه وزوجه من ابنته زينب، فهو من نسب أب وأم شريفين، معروفين بالتقوى والإيمان. وعلى الرغم من أنها تزوجت وعاشت في بيت أهل زوجها، إلا أن هذا لم يمنعها من زيارة بيت أبيها والاهتمام بأخويها بعد وفاة أمها فاطمة الزهراء، فقد كان مقربة جدا من أهلها وكانت ترعى شؤونهم بصفتها الأخت الكبرى.

تزوجت زينب من ابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وانجبت منه عون وعباس وعلي، وقد قتل ابنها عون مع خاله الحسين وأصحابه في معركة كربلاء، ولها ابنة واحدة هي أم كلثوم. ذكر عدد من الباحثين أن لها ابنًا أيضا اسمه محمد، وقيل إنه ليس ابنها، بل ابن زوجته الأخرى الخوصاء من بني بكر بن وائل والذي استشهد مع الحسين بالطف.

صفـاتهـا:

كانت السيدة زينب عليها السلام رقيقة القلب، سريعة الدمع، شديدة الخوف من الله؛ تصوم النهار وتقوم الليل .. وكانت دائما تناجي الله وتدعوه سبحانه في خشوع وخضوع بدعاء رسول الله ﷺ «يا من لبس العز وتردى به وتعطف بالمجد وتحلى به، أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم وكلماتك التامات المباركات، أن تصلي على مُحَّد وعلى آل مُحَّد الطيبين الطاهرين وأن تجمع لي خيري الدنيا والآخرة برحمتك يا أرحم الراحمين».

ملحمة كربلاء وبطولة نادرة:

كان لزينب دور بطولي وأساسي في ثورة كربلاء التي تعتبر من أهم الأحداث التي عصفت بالأمة الإسلامية بعد رسول الله، وكان دورها لا يقل عن دور أخيها الحسين بن علي وأصحابه صعوبةً وتأثيرًا في نصرة الدين. وأنها قادت مسيرة الثورة بعد استشهاد أخيها وكان لها دور إعلامي .فأوضحت للعالم حقيقة الثورة وأبعادها وأهدافها.

لمَّا تحرك الحسين بن علي ـ رضى الله عنه ـ مع عدد قليل من أقاربه وأصحابه للجهاد ضد يزيد بن معاوية، رافقته شقيقته زينب إلى كربلاء ووقفت إلى جانبه خلال تلك الشدائد وشهدت كربلاء بكل مصائبها ومآسيها،

وقد رأت بعينيها يومَ عاشوراء كلَّ أحبتها يسيرونَ إلى الموت إلى المعركة ويستشهدون.

لقد أظهرت كربلاء جوهر شخصية السيدة زينب وكشفت عن عظيم كفاءاتها وملكاتها القيادية، كما أوضحت السيدة زينب للعالم حقيقة ثورة كربلاء وحقيقة فعل بنى أمية وأبعاد حوادثها..

حينما حدثت الفاجعة الكبرى بمقتل أخيها الحسين بن علي رضى الله عنه بعد قتل كل رجالات بيتها وأنصارهم، خرجت السيدة زينب تعدو نحو ساحة المعركة، تبحث عن جسد أخيها الحسين المسجى بين القتلى غير عابئة بالأعداء المدججين بالسلاح، فلما وقفت على جثمان أخيها الحسين الذي مزقته سيوف الحاقدين وهي تراه جثة بلا رأس مقطع إلى أشلاء، فأخذت تطيل النظر إليه ثم وضعت يدها تحت جسده الطاهر المقطع وترفعه نحو السماء، وهي تدعو بمرارة قائلة: "اللهم تقبل منا هذا القربان".

شجاعة في أرض المعركة:

قُتل أبناؤها وأخوتها وبني هاشم أمام عينيها. وبعد انتهاء المعركة، رأت أجسادهم بدون رؤوس وأجسامهم ممزقة بالسيوف وقد مثل بهم. وكانت النساء الأرامل من حولها وهن يندبن قتلاهن وقد تعلق بهن الأطفال من الذعر والعطش، و كان جيش عبيد الله بن زياد يحيط بهم من كل جانب وقاموا بحرق الخيم واعتدوا على حرمات النساء والأطفال.

وبقيت زينب صابرة محتسبة عند الله ما جرى عليها من المصائب و مصرع آل بيتها في هذه المعركة وقابلت هذه المصائب العظام بشجاعة فائقة.

عقيلة بني هاشم بين السبايا في الكوفة:

بعد استشهاد الحسين بن علي وأولاده ورجال أهل بيته وأصحابه في معركة كربلاء، أعلن عمر بن سعد القائد الأموي لجيش الكوفة النصر العسكري على جيش الحسين، فبدأ جنوده اقتحام الخيم القليلة المنصوبة للنساء والأطفال وحرقها وساقوا النساء والصبيان والمرضى سبايا إلى الكوفة حيث مقر عبيد الله بن زياد وواليها من قبل بني أمية. فلما قاربوا الكوفة، اجتمع أهلها للنظر إليهن. فجعل أهل الكوفة ينوحون ويبكون. فقال علي بن الحسين: تنوحون وتبكون من أجلنا؟ فمن ذا الذي قتلنا؟ وقد أومأت زينب بنت علي إلى الناس أن اسكتوا وألقَت خطبة بليغة عليهم، فقام بإلقاء خطبته المعروفة في أهل الكوفة.

فخطبت زينب خطبتها الشهيرة في أهل الكوفة قبل دخولها إلى مجلس ابن زياد، فقالت لهم زينب: "يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة ولا هدأت الرنة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا، تتخذون إيمانكم دخلا بينكم، وهل فيكم إلا الصلف النطف والصدر الشنف، وملق الإماء وغمز الأعداء، أو كمرعى على دمنة أو كفضة على ملحودة. ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون. أتبكون وتنتحبون! أي والله

فابكوا كثيرا واضحكوا قليلا، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها ولن ترحضوها بغسل بعدها أبدا وأنّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة وسيد شباب أهل الجنة وملاذ حيرتِكم ومفزع نازلتكم ومنار حجتكم ومدرة سنتكم. ألا ساء ما تزرون وبعدًا لكم و سحقًا. فلقد خاب السعي وتبت الأيدي وخسرت الصفقة وبؤتم بغضب من الله وضربت عليكم الذلة والمسكنة ويلكم يا أهل الكوفة أتدرون أي كبد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فريتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دمٍ له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم؟ لقد جئتم بها صلعاء عنقاء سوداء فقماء خرقاء شوهاء كطلاع الأرض أو كمِلئ السماء أفعَجبتم إن مطرت السماء دما ولعذاب الآخرة أخزى وأنتم لا تنصرون، فلا يستخفنكم المهل. فإنه لا يحفزه البدار ولا يخاف فوت الثأر وإن ربكم لبالمرصاد. ثم أنشأت تقول:

ماذا تقولون إذ قال النبي لكم	ماذا صنعتم وأنتم آخر الأمم
بأهل بيتي وأولادي ومكرمتي؟	منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم؟
ما كان ذاك جزائي إذ نصحت لكم	أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي
إني لأخشى عليكم أن يحل بكم	مثل العذاب الذي أودى على إرم".

وكان كلامها غايةً في الفصاحة والبيان مستعينةً بآيات من القرآن وكلامها يفيض بحرارة الإيمان وحسن الظن بالله. فضج الناس حينئذ بالبكاء والعويل. وعندما أدخلت نساء الحسين وأولاده ورهطه إلى قصر الكوفة، حاول ابن زياد التهجّم على أهل بيت والشماتة بما حصل لهم في كربلاء، فكان ردّ زينب قويًّا وعنيفًا ولم تأبه بحالة الأسر والمعاناة التي كانت عليها.

حين سألها ابن زياد: "كيفَ رأيتِ فعلَ اللهِ بأهلِ بيتكِ؟!" فقالت: "ما رأيت إلاّ جميلًا. هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم...". وكان كلامها معبرًا عن حالة الرضا والتسليم المطلق لله عزّ وجلّ. وانتهى موقفها في الكوفة إلى فضح القتلة وتبيين مقام شهداء كربلاء وقرابتهم من الرسول ﷺ.

الثائرة في الشام:

ثم جُلبت أسيرة من الكوفة إلى الشام بأمر من يزيد بن معاوية، ورأس أخيها الحسين ورؤوس شهداء أمامها على رؤوس الرماح طول الطريق، حتّى دخلوا دمشق وأُدخلوا على يزيد وهم مُقرّنون بالحبال والقيود، فعندما دخلوا على يزيد، أمر برأس الحسين، فوضع بين يديه وأخذ ينكث ثنايا الحسين بقضيب خيزران بيده، كما وكان يشتم رأس الإمام وصرح بأن المعركة كانت للأخذ بثأر بدر، واستشهد بشعر لابن الزبعري:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا ... جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسَلْ

لَأَهَلُّوا وَاسْتَهَلُّوا فَرَحاً ... وَ لَقَالُوا يَا يَزِيدُ لَا تُشَلْ

فَجَزَيْنَاهُمْ بِبَدْرٍ مِثْلَهَا ... وَ أَقَمْنَا مِثْلَ بَدْرٍ فَاعْتَدَلْ

لَسْتُ مِنْ خِنْدِفَ إِنْ لَمْ أَنْتَقِمْ ... مِنْ بَنِي أَحْمَدَ مَا كَانَ فَعَلْ

فأثار هذا المشهد غضبها ومشاعرها، فقامت وخطبت في مجلس يزيد معلنة انتصار الحق ونهاية الحكم الأموي حيث ردت عليه بكل شجاعة

وإباء مستصغرة قدره وسلطانه ومستنكرة فعلته النكراء، وقالت: "أَظَنَنْتَ يَا يَزِيدُ حِينَ أَخَذْتَ عَلَيْنَا أَقْطَارَ الْأَرْضِ وَضَيَّقْتَ عَلَيْنَا آفَاقَ السَّمَاءِ، فَأَصْبَحْنَا لَكَ فِي إِسَارٍ، نُسَاقُ إِلَيْكَ سَوْقا فِي قِطَارٍ، وَأَنْتَ عَلَيْنَا ذُو اقْتِدَارٍ، أَنَّ بِنَا مِنَ اللَّهِ هَوَانًا وَعَلَيْكَ مِنْهُ كَرَامَةً وَامْتِنَانًا؟؟ وَأَنَّ ذَلِكَ لِعِظَمِ خَطَرِكَ وَجَلَالَةِ قَدْرِكَ؟؟ فَشَمَخْتَ بِأَنْفِكَ وَنَظَرْتَ فِي عِطْفٍ، تَضْرِبُ أَصْدَرَيْكَ فَرِحا وَتَنْفُضُ مِدْرَوَيْكَ مَرِحا حِينَ رَأَيْتَ الدُّنْيَا لَكَ مُسْتَوْسِقَةً وَالْأُمُورَ لَدَيْكَ مُتَّسِقَةً وَحِينَ صَفِيَ لَكَ مُلْكُنَا وَخَلَصَ لَكَ سُلْطَانُنَا!.

فَمَهْلًا مَهْلًا لَا تَطِشْ جَهْلًا! أَنَسِيتَ قَوْلَ اللَّهِ: "وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ". أَمِنَ الْعَدْلِ يَا ابْنَ الطُّلَقَاءِ تَخْدِيرُكَ حَرَائِرَكَ وَسَوْقُكَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ سَبَايَا؟؟ قَدْ هَتَكْتَ سُتُورَهُنَّ وَأَبْدَيْتَ وُجُوهَهُنَّ يَحْدُو بِهِنَّ الْأَعْدَاءُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَيَسْتَشْرِفُهُنَّ أَهْلُ الْمَنَاقِلِ وَيَبْرُزْنَ لِأَهْلِ الْمَنَاهِلِ وَيَتَصَفَّحُ وُجُوهَهُنَّ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ وَالْغَائِبُ وَالشَّهِيدُ وَالشَّرِيفُ وَالْوَضِيعُ وَالدَّنِيُّ وَالرَّفِيعُ، لَيْسَ مَعَهُنَّ مِنْ رِجَالِهِنَّ وَلِيٌّ وَلَا مِنْ حُمَاتِهِنَّ حَمِيمٌ، عُتُوّا مِنْكَ عَلَى اللَّهِ وَجُحُودًا لِرَسُولِ اللَّهِ وَدَفْعًا لِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَا غَرْوَ مِنْكَ وَلَا عَجَبَ مِنْ فِعْلِكَ".

ومن خلال هذه الخطبة بيّنت للناس الغافلين الحقائق وفضحت أفعال بني أمية وجرائمهم التي ارتكبوها في حق آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حادثة كربلاء؛ حيث كان يعتقد أهل الشام أن الحسين وأصحابه من المارقين عن الدين بخروجه على يزيد بن معاوية.

وفاتها ومدفنها:

اختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاتها، وإن كان الأرجح عند كثير من الباحثين أنها توفيت في سنة ٦٢ هـ، وذكر الكثير من المؤرخين وسير الأخبار بأنها توفيت ودفنت في دمشق، ورأي آخر على أنها دفنت في القاهرة.

والرأى الراجح أنها توفيت ﵂ في مساء الأحد ١٥ من رجب سنة ٦٢ هـ / ٦٨٢م ودفنت بمخدعها وحجرتها من دار سلمة التي أصبحت الآن مسجدها المعروف (مسجد السيدة زينب)، بالقاهرة – مصر.

زينب بنت علي بن أبي طالب الصابرة، المحتسبة، الشجاعة هي واحدة من آل البيت، الذين كان لوفاتهم الأثر العظيم في حياة المسلمين. وعلى الرغم من أنها امرأة، إلا أنها تعادل في قوتها وشجاعتها مائة رجل وأكثر.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الآداب الشرعية، لابن مفلح – تحقيق شعيب الارناؤوط و عمر القيام – مؤسسة الرسالة ١٩٩٩.
- أسعد امرأة في العالم، د. عائض القرني – مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٦.
- أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، إبراهيم مُحَمَّد حسن الجمل – دار الاعتصام للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٨ .
- إمتاع الأسماع، للمقريزي – تحقيق مُحَمَّد عبد الحميد النميسي – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٩ .
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، العلامة ابن إياس – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤.
- البداية والنهاية، لابن كثير – مكتبة المعارف – بيروت ١٩٩٠.
- تاريخ الطبري، لابن جرير الطبري – دار المعارف ١٩٦٧.
- تحفة العروسين، محمود مهدي الاستنبولي – مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ٢٠٠٨ .
- تحفة الودود بأحكام المولود، ابن القيم الجوزية – عبد القادر الأرناؤوط – مكتبة دار البيان – دمشق ١٩٧١.

- تراجم سيدات بيت النبوة، د. عائشة عبد الرحمن – دار الحديث ٢٠٠٤.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير – دار الكتب العلمية ١٩٩٨.
- تفسير الطبري، لابن جرير الطبري – دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ٢٠٠١ .
- تنبيه الغافلين، أبي الليث نصر بن مُحَمَّد السمرقندي – تحقيق يوسف علي بديوي – دار ابن كثير– بيروت ٢٠٠٠.
- الجليس الصالح الكافي، القاضي أبو المعافي النهرواني – تحقيق عبد الكريم سامي الجندي – دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٥.
- خاتم المرسلين، الإمام مُحَمَّد أبو زهرة – دار الفكر العربي – القاهرة ٢٠٠٤.
- دلائل النبوة، البيهقي – تحقيق د. عبد المعطي قلعج – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨٨ .
- رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآنا، د. عبد الرحمن عميرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١.
- رحلة العائلة المقدسة في مصر، ياسر مصطفي – دار الفاروق للاستثمارات الثقافية ٢٠٠٩.
- سلسلة المرأة الصالحة، عصام الشريف – دار الصفوة ٢٠١٣.
- سنن ابن ماجة، ابن ماجة – تحقيق مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء الكتب العربية ٢٠١١.

- سنن البيهقي، البيهقي – تحقيق محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية ٢٠٠٣.
- سنن الترمذي، الترمذى – تحقيق بشار عواد معروف – دار الغرب الإسلامي – بيروت ١٩٩٨.
- سنن النسائي، النسائى – تحقيق عبد الفتاح أبو غدة – مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب ١٩٨٦.
- سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي – مؤسسة الرسالة ١٩٨٥.
- السيرة النبوية، لابن هشام– تحقيق مصطفي السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي – شركة مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٥٥.
- السيرة النبوية، د. علي الصلابي – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت ٢٠٠٨.
- شذى الياسمين في فضائل أمهات المؤمنين، مركز البحوث والدراسات بمبرة الآل والأصحاب الكويت ٢٠٠٥.
- الطبقات الكبرى، لابن سعد – تحقيق محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت١٩٩٠.
- العقد الفريد، لابن ربه – تحقيق مفيد محمد قميحة – دار الكتب العلمية ١٩٨٣.
- عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة وأهل البيت، د. علاء بكر – دار العقيدة ٢٠٠٢.

- عمل المرأة في ميزان الشريعة الإسلامية، أم حبيبة البريكي – مكتبة أولاد الشيخ ٢٠٠٥.
- قصص الأنبياء، د. عبد الوهاب النجار – دار الكتب العلمية ١٩٩٢.
- قصص النساء في القرآن الكريم، الشيخ أحمد جاد – دار الغد الجديد ٢٠٠٥
- الكامل في التاريخ، لابن الأثير – تحقيق عمر عبد السلام تدمري – دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٧.
- الكاملات الأربعة وأفضل النساء، د. أكرم رضا – مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع ٢٠٠٩.
- لسان العرب، لابن منظور – دار صادر – بيروت ١٩٩٤.
- مؤمنات لهن عند الله شأن، د. محمد بكر إسماعيل – دار المنار للطباعة والنشر ١٩٩٧.
- المختصر من كتاب الموافقة بين أهل البيت والصحابة، الزمخشري– تحقيق سيد إبراهيم صادق
- – دار الحديث القاهرة ٢٠٠١.
- المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية، د. محمد إسماعيل المقدم – دار الجوزى، القاهرة ٢٠٠٥.
- المرأة في أدوراها الثلاثة، محمد مسعود – القاهرة ١٩٢٥.
- المسند، للإمام أحمد بن حنبل – تحقيق أحمد شاكر – حمزة الزين – دار الحديث ١٩٩٥.

- مناقب علي والحسين وأمهما فاطمة الزهراء، الشيخ/ مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي – دار الحديث ١٩٩١.
- مواقف إيمانية، د. أحمد فريد – الدار السلفية للنشر والتوزيع – الإسكندرية ٢٠٠٢.
- موسوعة أمهات المؤمنين، د. صلاح عبد الصبور شاهين، أ. إصلاح عبد السلام الرفاعي – مكتبة النافذة ٢٠٠٦.

الفهرس